

# الحَرْبُ العَالَمِيَّةُ الدَّامِيَّةُ



## دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان : مدينة العبور - الحي السادس فيلا ٨ مدخل ١

هاتف : 010003288596

بريد إلكتروني : [Dream.pen92@gmail.com](mailto:Dream.pen92@gmail.com)

---

### الحرب العالمية الدائمة

---

رانيا مهدي

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٢٠م

غلاف : عمار جمال العبد

تصميم فني: الديوان للتصميم وخدمات النشر

رقم الإيداع : ٢٠١٩ / ؟؟؟؟

I.S.B.N: 978-977-488-???-4

---

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونياً نسخاً أو تسجيلاً أو تخزيناً، دون إذن خطي من الدار

# الْحَرْبُ العَالَمِيَّةُ الدَّامِيَّةُ

رواية

رانيا مهدي





## إهداء

إلى زوجي (أحمد مهدي)، ملهمي، وأول المؤمنين بقلمني،  
والعمود الفقري الذي تستقيم به حياتي. إلى والدي رحمة الله عليه  
الذي سقاني حلاوة اللغة ومعلمي الذي أعطاني مفاتيح كنزها. إلى  
أختي وصديقتي (جيسي أبو المجد) التي كانت ملاذاً لي في أحلك  
الظروف. وأخيراً إلى أولادي الذي أتمنى أن أترك لهم إرثاً أدبياً  
يفخرون به طيلة حياتهم. إلى كل ضوء يمر في حياتنا فيجعلنا نسير  
ونلمع من جديد إلى أولئك الذين ينبتون في حياتنا ويلهموننا الإزهار  
والإشراق...

رانيا مهدي



## مُقَدِّمَةٌ

هل عاصرت حرباً يوماً ما؟ إن كانت إجابتك نعم، فهذا يعني أنك ستعيش الأجواء مرةً أخرى من خلال تلك السطور القادمة، وإن كانت إجابتك بلا فساخبرك بأن تتريث قبل أن تردّ بالنفي، فالحرب لا تُعني بالضرورة مفهومها المتعارف عليه، فأَيُّ صراعٍ نفسيٍّ وقعتَ به يُعدُّ حرباً وإن كانت باردة، وتكاد لا تقل أهميةً عن المعارك الحربية، ففي الأخيرة غالباً تكون على علم بعدوك وقدرته وتستطيع أن تُعد له العدة، أما صراعاك القابع في نفسك يكون عدوك الوحيد فيه هو أنت؛ روحك، قلبك أو عقلك وربما تموت حتى دون أن تعرف من هو الخاسر في تلك الحرب.





## موسكو

عام ١٩٩٠

أنزلت الطائرة القادمة من برلين عجلاتها استعداداً للهبوط على المدرج المخصّص لها في مطار موسكو.

وفي الكرسيّ الأخير من الطائرة يجلس دكتور «أدلار» شارد الذّهن، ظاهراً على وجهه علامات عدم الارتياح؛ ففتح الشباك الصغير ليُلقي نظرةً سريعةً على المدينة الذي أتاها مرغماً، ثمّ أغلقه بحدّة و ألقى برأسه مغمضاً عينيه محاولاً الاسترخاء لدقائقٍ قبل أن تلمس عجلات الطائرة أرضاً لطالما بغضها طوال حياته.

حاول دكتور «أدلار» الاسترخاء على أريكة داخل غرفته بأحد فنادق موسكو بعد عناء رحلة دامت أكثر من عشرين ساعة، بينما كان يعجّ رأسه بالعديد من الأفكار، أخرج من جيبه صورة قديمة لسيدة تأملها قليلاً ثمّ أعادها إلى جيبه بجانب قلبه كما تعود حتى استسلم لنوم عميق لم يفق منه إلا على صوت هاتف الغرفة؛ لإيقاظه في الساعة الخامسة صباحاً كما طلب من خدمة الفندق، ارتدى ملابسه و احتسى قهوته الصباحية ثمّ توجه إلى المكان الذي قديم إلى (موسكو) من أجله مجبراً.

إنّها جامعة موسكو ذلك المكان الذي تواصل معه الدكتور «أدلار» من أجل إتمام رسالته العلمية والحصول على لقب «البرفيسور»، بالطبع كان يمكنه القيام بذلك في جامعة برلين ولكن طبيعة الرسالة التي سيقدمها للمناقشة حتمت عليه التواجد في موسكو، كان «أدلار» شخصاً دقيقاً جداً يهتم بالتفاصيل

عموماً فكيف وإن كانت رسالته العلمية!؛ فعقد العزم على الاستناد إلى حقائق تاريخية والتي لن تتحقق الا بمقابلة أشخاص عاصروا هذا الواقع وعاشوه حتى يبني صورة مكتملة الأركان عن الحرب العالمية وأسرارها.

وكألمانيّ الجنسية جُبل على كُره السوفييتّ ولكن الأمانة العلمية ألزمته بتقصّي الحقيقة ونقلها كما هي بناءً على الاستماع للطرف الآخر حتّى وإن كان عدواً له بالفطرة.

دَلَف الدكتور «أدلار» من باب مكتب رئيس الجامعة الدكتور «أليكسندر» حيث استقبله الأخير بابتسامة باردة ولكنه التزم المهنية في التعامل.

«إنه من دواعي سرورنا وشرفّ لنا تواجد باحث متميز مثلك معنا دكتور أدلار» قالها الدكتور أليكسندر.

حاول أدلار الابتسام ضاغطاً عضلات وجهه بالقوة خوفاً من أن تفضحه ملامحه كشخص يكره أياً من السوفيتين حتّى النخاع حتى تلك اللكنة الإنجليزية التي يتحدثون بها تثير اشمئزازه.

دار صراعٌ داخلي بين جنبات نفسه، بل هو صراع بين مشاعره الشخصية وعقله؛ فنفسه كانت تأبى التواجد في روسيا من الأصل، أما عقله الذي يبحث عن المكانة العلمية وتحقيق طموحه في الحصول على الرسالة العلمية كان يدفعه بقوة نحو استكمال هدفه، وقد أطل دكتور «الليكسندر» الحوار حول فكرة الرسالة وطبيعتها وترتيب الأولويات وتحديد المسارات التي سيسلكها «أدلار» ومن أين ستكون نقطة الانطلاقة. بيد أن «أدلار» كان يبدو شارد الذهن غير مُعطي وعياً كاملاً أثناء الحديث.

«وهذا هو عنوان المكان الذي ستبدأ منه بحثك الميداني دكتور أدلار.. دكتور أدلار؟!»

انتبه أدلار بعد أن أخرجه صوت دكتور «أليكسندر» من بين معركة عقله وقلبه؛ فتدارك الأمر محدثاً نفسه:

«عليّ أن ألتزم بالمهنية» ثم أوماً برأسه: «أشكرك سيدي بينما الشرف لي أنك ستشرف على رسالتي شخصياً» وأكملت نفسه حديثها: «أيها السوفيتي الحقير»

توجه أدلار إلى إدارة الجامعة لاستكمال إجراءاته ثم خرج مستقلاً سيارة أجرة إلى ذلك العنوان الذي أعطاه إياه دكتور ألكسندر.

دار عجزة تابعة للحكومة السوفيتية ذلك هو العنوان الذي قصده أدلار والذي سيبدأ منه رحلته، وما إن دخل إلى مكتب الاستقبال وعرف نفسه ابتسمت له الموظفة المسؤولة بؤدٍ وأخبرته أنها على علم بوصوله وأن الدكتورة

«إيلينا ماكسيم» في انتظاره وهي من ستكون بصحبته حيث إنها المسؤولة عن الصحة النفسية للنزلاء.

صافح أدلار الدكتورة إيلينا والتي لفتت انتباهه بشدة، كانت إيلينا طويلة القامة، ممشوقة القوام ذات شعر أحمر داكن وعينان بلون السماء، شديدة البياض ذات أنفٍ دقيقٍ وشففتين ورديتين ممتلئتين رُغم صغر نُعُرها ولكن ما لفت انتباه أدلار هو دَفءِ يديها رغم البرودة الشديدة للطقس، والابتسامة الصافية التي علت نُعُرها. أشارت إيلينا إلى أدلار بالجلوس بطريقة مُهدّبة، وكسرت حاجز الصمت في تلك اللحظات بادئةً في سؤاله:

- ماذا تحب أن تشرب دكتور أدلار؟

فأجابها بابتسامة ودودة:

- «لا بأس بالشكولاتة الساخنة».

فضحكت إيلينا بهدوء:

- «أنا أيضاً أحب الشوكولاتة الساخنة، وهذا هو أول شيء  
مشارك بيننا فأنا أرتاح بالعمل مع أشخاص يكون بيني وبينهم أشياء  
مشتركة.»

ثم رفعت سماعة هاتف مكتبها:

- «اثنين من الشوكولاتة الساخنة من فضلك..أشكرك».

لأول مرة يشعر أدلار بالارتياح منذ وصوله موسكو، فلم يبذل  
ذلك المجهود للسيطرة على تعبيرات وجهه لدرجة تعجبت منها نفسه.  
«يسعدني أن أكون بصحبتك دكتور أدلار» قالتها إيلينا وهي  
تضع كوب الشوكولاتة الساخنة على مكتبها ثم استطردت:  
- «حدثني دكتور ألكسندر عنك مما دفع فضولي لمعرفة  
المزيد»

- «أنا دكتور أدلار باحث في التاريخ جئت إلى موسكو من أجل  
اتمام رسالتي العلمية عن الحرب العالمية؛ فبعد أن قرأت كثيراً  
وبحثت في الموضوع وجدت هناك العديد من الألغاز والأسرار التي  
دارت داخل تلك الحرب».

ابتسمت إيلينا ثم همّت بقول شيئاً ولكنها ابتلعت جملتها.

- «أرى في عينيك الكثير من التساؤلات دكتور إيلينا ولعل  
أبرزها هو لماذا يأتي ألماني إلى موسكو والقيام بالبحث الميداني  
عن الحرب العالمية؟»

أومأت إيلينا برأسها وهي مصغية تماماً إلى أدلار، فاستطرد أدلار:

- «دعينا نبدأ رحلتنا أولاً مع نُزلاء الدار ثُمَّ سأشرح لك كل شيء بالتفصيل أثناء تفقدي للمكان».

وبالفعل توجه أدلار بصحبة إيلينا لتفقد النُّزلاء من مصابي الحرب؛ لكي يختار منهم الحالات التي سيُبنى عليها رسالته العلمية.

وبدأت الدكتوراة إيلينا بإعطاء أدلار بيانات أولية عن بعض الأشخاص. معظم النُّزلاء الذين عاصروا الحرب كانوا شباباً أو أطفالاً أثناء تلك الفترة العصيبة مما يعني أن معاناتهم استمرت لسنين طويلة رُغم انتهاء الحرب، ولكن الأمر لم يشغل بال أدلار ولم يثر شفقتة.

وبعد أن مروا على الكثير من الحالات لفت نظره حالة سيدة تُدعى «ناتاشا سيباستيان»، حيث كانت صامته ولم تُحرك ساكناً عند رؤيتهما، نظر الدكتور أدلار إلى إيلينا مندهشاً من ذلك المشهد وعيونه تتضح بالفضول قبل أن ينطق:

- غريبة حالة تلك السيدة أريد أن أبدأ معها بحثي.

هزت الدكتوراة إيلينا رأسها دليلاً على الرفض قائلة:

- للأسف هي لا تتكلم ولا تعي ما يدور حولها، حالتها ميئوس

منها وقد حاولنا كثيراً بشتى طرق العلاج ولكن دون جدوى.

- ولكن حالتها جذبتني فكيف لي أن أعرف كافة التفاصيل

عنها؟

- سأحاول أخذ تصريح من الدار بأن أعطيك الملف الخاص بها

والذي يحوي جميع بياناتها والتقارير الطبية المرفقة به منذ وصولها

إلى هنا، ويمكنك الجلوس في مكثبي ريثما أذهب لإنهاء الإجراءات

المتعلقة بذلك الأمر.

شكرها أدلار واتَّجه معاً إلى مكثبها ثُمَّ غادرت إيلينا مسرعة

إلى الأرشيف.

جلس أدلار لتدوين بعض الملاحظات بعد الزيارة السريعة لبعض الحالات وما زال فكره منشغلاً بحالة السيدة ناتاشا. غابت إيلينا فترة ليست بالقليلة لتعود بعدها إلى مكتبها حاملةً ملف الحالة. التقط أدلار الملف والفضول يقطر من ملامحه شاكرًا الدكتورة إيلينا لينطلق بعدها مسرعًا نحو الفندق.



## دَاخَاو

جلس أدلار والملف أمامه يتفحصه ببطيء شديد ابتغاء محاولة حل لغز حالة «ناتاشا سيباستييان نفزجر»، ورقة تلو الأخرى معظمها تقارير طبية حول الحالة التي صُنِّفت اضطراباً تحوُّلياً، وضع أدلار الملف بعصبية فوق طاولة، حيث إن التقارير كانت تحوي مصطلحات طبية معقدة تحتاج إلى متخصص لشرحها، أخرج أدلار الصورة القديمة من جيبه وظل يحملق بها في سكون، ثم عاد والتقط الملف مرة أخرى باحثاً في بيانات الحالة عن مسقط رأسها أو مكان مُعيَّن وجدت فيه علّه بذلك يستطيع سبل أغوار لغز ناتاشا؛ ليفاجأ بكلمة (داخاو).

في الصباح الباكر توجه أدلار إلى مكتبة جامعة موسكو وغاص بداخلها لساعات طويلة، غارقاً بين المراجع الطبية والأبحاث العلمية ل «جان مارتن شاركو» و«سيغموند فرويد» و«بيير جانيه» كي يعرف ما الاضطراب التحوُّلي؟ وما أسبابه؟

ساعات وساعات مرّت لم يعي فيها أدلار الوقت الطويل الذي استغرقته عملية البحث، حتى نبهته معدته الخالية أنه لم يتناول شيئاً طيلة اليوم، وضع نظارته الطبية مطلقاً معها زفرة حارة دليل على التعب والإرهاق، ولكن بحثه أثمر عن تكوين صورة عامة عن ذلك المرض العجيب والذي يستسلم فيه دماغ المريض للعجز التام عندما يقع تحت وطأة صدمة لا يستطيع الإنسان تحملها فيلجأ جسد المريض للانفصال عن الواقع ويتحول الأمر إلى أمراض عضوية يعجز الطب عن علاجها في الحالات المزمنة وينتهي المطاف بالمريض بالاستسلام التام للحالة، بل ومقاومة نفسية وجسدية لأي علاج، ومن أعراضه: فقدان النطق والتبديل وانعدام رد الفعل كما في حالة ناتاشا.

«ما الذي دفع بها إلى هذا التحول؟» كان هذا هو السؤال الذي تردد في عقل أدلار ولم يجد له إجابةً حتى الآن.

خرج أدلار من المكتبة حاملاً معه عدة مراجع تاريخية ليبدأ رحلة بحث أخرى بعد أن أنهى رحلته السريعة في البحث الطبي عن طبيعة ذلك المرض.

«دكتور أدلار» التفت أدلار إلى الصوت ليجد أمامه دكتور أليكسندر المشرف على رسالته العلمية والذي استكمل حديثه:

- أكنت هنا طوال اليوم؟!

-مرحباً دكتور أليكسندر، نعم كنت أجري بحثاً من أجل حالة مصابة بالاضطراب التحولي؛ فقد لفتت نظري تلك الحالة بشدة وأردت أن أبحث عن الأسباب التي أدت لتردّي حالتها بذلك الشكل.

صمت الدكتور أليكسندر برهة وهو يحاول أن يجد طريقة لائقة لشرح وجهة نظره في تقليص عملية البحث لتسهيل الأمر على دكتور أدلاردون أن يبدو عنصرياً، قبل أن ينطق:

- ابحث في المراجع التاريخية لل...للمعتقدات النازية.

شعر أدلار بغضب داخلي، وصراع بين أن يرّد على ذلك السوفينيّتي ويلقنه درساً في التعريف بالتاريخ الألماني وبين السكوت وضبط النفس، ولكنه تراجع متذكراً أنه هنا لمهمة محددة وربما التسرع وأخذ الأمور على محمل شخصي يضربه أكثر ما يفيده، فاحتاج الأمر منه تنفيذ تمرينات الثبات الانفعالي التي لطالما تدرّب عليها قبل قدومه إلى موسكو؛ ليرد بكل هدوء:

- بالتأكيد دكتور أليكسندر لن يفوتني ذلك الأمر.

ثمّ نظر الأخير نظره سريعة إلى بعض المراجع التي يحملها أدلار ليتدارك الأمر في محاولة لتخفيف حدة الموقف:

- يبدو أنك تسيير في المسار الصحيح دكتور أدلار.

لينهي الأخير الحوار بطريقة دبلوماسية:

- أتمنى أن أكون عند حسن ظنك دائماً.

- أعتقد أنك ستحصل على الدرجة العلمية مع مرتبة الشرف.

- أتمنى ذلك.

تَمَّ هَمَّ أدلار بالإنصراف سريعاً معللاً ذلك بأن لديه الكثير من العمل لأبد أن ينهيه الليلة قبل زيارته مرة أخرى لدار العجزة ومصابي الحرب.

ورغم هدوء ملامحه إلا أن صدره كان مشتعلًا بنيران الغضب والذي حاول اطفاءها باستنشاق بعض الهواء البارد وتذكير نفسه دائماً أنه هنا لهدف سيغير مجرى حياته.

ومرة أخرى ينكب أدلار فوق الكتب والمراجع المتراكمة أمامه داخل غرفته وقد نال الإرهاق منه مناله حتى غط في نوم عميق دون أن يشعر، ليستيقظ مفزوعاً إثر كابوس مزعج يلاحقه منذ فترة ليست بالقليلة ناظراً إلى عقارب تلك الساعة العتيقة المعلقة على جدار غرفته والتي كانت تشير إلى السادسة صباحاً، مسح أدلار وجهه وقد ارتسمت حول عينيه هالات سوداء من شدة التعب.

وبعد احتساء قهوته قرّر ألا يذهب في أي مكان قبل الانتهاء من حل لغز «ناتاشا سيبستيان».

استمر أدلار في القراءة وتدوين الملاحظات حتى بدأت تتضح الصورة أمامه، كان اللغز يكمن في أن ناتاشا ألمانية الجنسية فما سبب وجودها في دار عجزة سوفيتية؟ كان طرف الخيط يتمثل في المنطقة التي وجدت فيها ناتاشا وهي «داخاو» والتي لم تكن مجرد مدينة ألمانية فحسب داخاو كان اسماً لمعتقل ضخم شيد

داخل المدينة الواقعة في جنوب ألمانيا، ويعد معتقل داخاو أول معسكر اعتقال نازي تمّ بناءه بعد تولّي أدولف هتلر الحكم، وكان ما يُميّز هذا المعتقل أن المساجين والمعتقلين الذين يتمتعون بالصحة أُستخدموا كعبيد للعمل بالسخرة في تشييد المصانع وخاصة مصانع الأسلحة التي كانت تخدم الجيش النازي وقد نُقش على البوابة الحديدية الضخمة للمعتقل عبارة حفظها المعتقلين عن ظهر قلب "العمل هو السبيل للحرية" ولكنها كلمة حق يراد بها باطل.

استمر أدلار في القراءة رغم عدم اقتناعه فيما يقرأ وقد شعر أن الكلمات عبارة عن أسواط تجلد قلبه من الداخل؛ فلم يتحمل ذلك القدر من الإهانة الموجه لكل ألماني محب لوطنه، وقرر أن يكمل قراءة رُغم العبارات الموجهة التي التهمت صبره على المكوث في موسكو.

صراع نفسي مرير من ناحية يرفض أدلار تصديق أي حرف كُتب في تلك المراجع، ومن ناحية أخرى يريد أن يكمل مشواره الذي بدأه، فقرر أن يكمل محاولاً أن ينحي مشاعره جانباً واستغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن يظهر بصيص نور عندما ظهر أمامه اسم أحد المعتقلين ويدعى (سيباستيان نفزجر) إنه نفس اسم والد ناتاشا! هكذا اندهش أدلار عندما وجد الاسم بعد عناء البحث عن أي خيط يدلّه على حالة ناتاشا، وليته ما فعل فكان ما ذُكر في المراجع شيئاً يدمي القلوب حيث أن سيباستيان كان يعمل في مجال التدريس في ميونخ إلا أنه كان معارضاً ديمقراطياً لنظام هتلر مما أدى إلى وضعه هو وعائلته تحت الحماية الانتقائية في معتقل داخاو كحال غيرهم من المعارضين وفقاً للأيديولوجية النازية، حتى وُجدت جُثته بعد ذلك داخل المعسكر والتقرير الأولي أظهر أنها حالة انتحار، أما التقرير الحقيقي هو أنه تمّ ضربه وتعذيبه أمام عائلته حتى الموت. وقد أقال

هتلر المدّعي العام عندما وجّه تهمة القتل ل «هيلمر فاكرلي» قائد معسكر داخاو،

وأصدر مرسومًا ينص على إن داخاو وجميع معسكرات الاعتقال الأخرى لن تخضع للقانون الألماني لأنها تنطبق على المواطنين الألمان، وإنّ مسؤولي النظام هم الوحيدون الذين يديرون هذه المعسكرات ويوزعون العقوبة كما يرونها مناسبة.

وبمطابقة التواريخ المرفقة في ملف ناتاشا بالتواريخ المذكورة في المراجع والمكان الذي وجدت فيه وتطابق الاسم؛ بدا من المنطقيّ أن تصل ابنة سيباستيان إلى تلك الحالة من الاضطراب التحولي.

كل سطر يقرأه أدلار ينزل عليه كالصاعقة خصوصًا بعد كل تلك التحليلات المنطقية والتي تضاربت مع ما كتبه المؤرخون الألمان، فقد تم تدريس التاريخ في ألمانيا وفقًا لرؤية هتلر، فلم يظهر المؤرخون الوجه القبيح لذلك الزعيم الذي لطالما احتشد خلفه الشعب في سبيل النهوض بألمانيا. أغلق أدلار الكتاب بقوة بينما كان يحدث نفسه:

- هُراء.. هُراء.. هُراء، هؤلاء السوفيت لن يتوقفوا عن تشويه تاريخنا ودسّ الحقائق المزيفة لتمثيل دور الضحية، سحقًا لهم!

دفن أدلار وجهه بين كفيه وهو يفكر جدياً في العودة إلى وطنه تاركًا ذلك المكان الذي يثير اشمئزازه، ولكن صوتًا بداخله كان يحثّه على البقاء والسير قدمًا نحو تحقيق هدفه.

مسح وجهه بكلتا يديه وأخرج من جيبه صورة السيدة التي لا تُفارقه، دار حوار طويل بينه وبين صاحبة الصورة اتبعه بذلك النوع من البكاء الذي يغسل القلب ويبعث السكينة على النفس وتستسلم بعدها لنوم كنوم الرضيع في مهده، ثمّ تستيقظ وقد تعامل جسدك مع الارتباك الكيميائي الذي حدث بداخلك ليعيد برمجتك، وتعود

تلقائياً إلى كامل وعيك ومقدرتك على اتخاذ القرارات الصحيحة. وقرر أدلار ألا يتخلّى عن حلمه وأن يبدأ في خط أول سطر في رسالته العلمية، منحياً انتماءه وحبه لوطنه جانباً، مصرّاً على إظهار الحقيقة بكل شفافية وإن كانت مؤلمة حد الموت.

وبعد الديباجة والمقدمة كتب أدلار الحالة رقم (١) "ناتاشا سيباستيان نفزجر"

وبعد الانتهاء من حالة ناتاشا توجه أدلار في صباح اليوم التالي إلى دار العجزة للبحث عن الحالة رقم (٢) في قائمة البحث الميداني.



## أوشفيتز

«صوفياً إيفانوفيتش» قالتها إيلينا وهي تشير إلى سيدة تبدو في العقد السادس من عمرها ممددة على سريرها داخل دار الرعاية. استيقظت السيدة المسنة ناظرةً إلى إيلينا ثم ابتسمت ابتسامة باهتة سرعان ما اختفت فور وقوع أعينها على الدكتور أدلار، فتساءلت بصوت منخفض:

- «من هذا دكتورة إيلينا؟»

- «إنه دكتور أدلار عزيزتي.»

- «ولماذا جاء إلى حجرتي؟»

ابتسمت إيلينا:

- «إنه باحث في التاريخ، جاء ليعيد رسالته العلمية عن الحرب العالمية.»

فردت العجوز منزعجة:

- «الحرب!»

ثمَّ حاولت الاعتدال في جلستها ولكن الزمن نال منها ماناله، فحاولت إيلينا مساعدتها على الجلوس بينما كانت العجوز معترضة على وجود أدلار محدثةً إيلينا بذلك. شعر أدلار أن السيدة المسنة منزعجة من وجوده وربما سترفض الفكرة من أساسها. بينما كان منتظراً موافقتها عندما فاتحتها إيلينا في الأمر تبين له أن العجوز تعاني من تشوهات شديدة؛ فقد كان هناك بعض من أعضائها مفقوداً! فعلم ذلك بأنها ربما أنها أصيبت في الحرب.

كانء إلفنا قد أنهء أءفءها مع السفةء المسنة صوففءا؁ وقد وافقت بعد أن علمء أنه ألمانى الجنسفةء فقط وذلك لأمر فف نفسها. اسءءء أءلار لءسجل الحوار صوءفءا بفأضار جهاز ءسجل لءوئفق شهاءة الناففن من الحرب ونقلها كما هف؁ وأفضا لءوئفق الحوار بأصواءهم؁ أوراق للءءوفن وطاولة صغيرة وفتح جهاز ءسجل وباءء السفةء صوففءا فف السرد:



## بولندا- عام ١٩٤٤

أثناء الحرب العالمية تفاقمت الجرائم النازية إلى حد لا يصدق  
عقل، وازدادت أعداد الأسرى في المعتقلات النازية.

«معتقل (أوشفيتزسوبيبور) ذلك المكان الذي شهد على الكثير  
من الجرائم اللاإنسانية في حق الأسرى الذين وقعوا في أيدي  
النازيين» هكذا افتتحت صوفياً حديثها بعد أن وافقت أن تحكي  
قصتها للدكتور أدلارعلى اعتبارها شاهدة على الأحداث.

كنتُ صغيرة ولكنني أتذكر تفاصيل ذلك اليوم كأنه وقع  
بالأمس، فعندما وصل القطار لمحطة (سوبيبور) ومع آخر صرير  
لعجلاته فوق القطبان شعرتُ بذلك الصوت يخترق جسدي فاهتز  
قلبي معه وكأن شيئاً يسحبني من يدِ أمِّي فتشبثتُ بها بشدة، كان  
جميع من في القطار خائفين من المجهول ولا نعلم ما المصير الذي  
سنلقاه؟ وجوه متجهمة وأعين حائرة ننظر إلى بعضنا البعض، أطفال  
في أحضان آبائهم، نساء حوامل يمسكن بطونهن وكان الأجنة  
أيضاً كانت ترتعد داخل الأرحام، رجال محتضنين عائلاتهم بيدو  
لك في الظاهر أنهم يحمونهم ولكن في الحقيقة كانوا يحتمون  
بهم فالأمر كان جلل حتى على أعتى الرجال، وبمجرد أن وطأت  
قدماي المكان شعرتُ أن قلبي انقبض بل ازدادت انقباضته حتى  
كادت تنفجر شرابيه، أحسست أن هناك أمراً مخيفاً يحدث في  
هذا المكان.

كانت موسيقى «الفالس» تتردد بين جنبات المعسكر عبر  
المكبرات الصوتية، بينما استقبلنا الجنود النازيون في البداية

بكل ود في محاولة خبيثة منهم للسيطرة على جموع الأسرى الغفيرة المصطفة أمامهم.

- «مرحباً بكم جميعاً أنا الجنرال ميلر رئيس الوحدة الوقائية ونعذر لكم عن أي ازعاج أو مضايقة، ولعلكم تتساءلون عن سبب وجودكم هنا! وأنا سأجيبكم»

«كلود» و«ساسى» هما والداي كنا من إحدى العائلات التي ابتلاها القدر بأن تصل لهذا المكان المخيف، لم يفلت والدي يدأمي ولم يفارق حضنه أنا وتوأمي جوليا منذ لحظة إجبارنا على استقلال ذلك القطار، فقد كنا نحتمي به من المجهول الذي ينتظرنا.

- لماذا تركنا منزلنا وأتينا إلى هنا؟

هذا هو أول سؤال تبادر إلى ذهني وقد طرحته على والدي علني استطيع استيعاب ما يحدث حولي، كان ذلك أول شعور بالفقد اختبره في حياتي، فقد الجدران التي كانت تأوينا، فإن تجبر على ترك موطنك هذا ما لا يتحملة بشر.

فجاءني رد والدي يحمل نبرة طمأنينة لم أتبين صدقها:

- «سنبدأ حياة جديدة يا صغيرتي فلا أريد منك الخوف أبداً ما دمت حياً اعلمي أنني لن أدع أيّ مكروه يحدث لكم».

- «لا أريد أيّ أحاديث جانبية أو حتى همس؛ فعندما أقوم بالتحدّث أريد منكم كامل الانتباه لأنني لن أعيد تلك التعليمات مرتين وفي حالة مخالفتها ستكون العواقب وخيمة، مفهوم؟»

ألقي الجنرال ميلر تلك التوبيهات على مسامعنا جميعاً في لهجة حادة وصوت مرتفع يتماشى مع ملامحه النازية الخالية من أيّ عاطفة، كان الأطفال يغمضون أعينهم في حركة طفولية بريئة لا إرادية بسبب نبرة صوته المخيفة، بينما ارتفعت دقات قلوب العائلات

التي أتت إلى مصير مجهول.

تهتدت السيدة صوفياً وأشاحت بوجهها محاولة إخفاء دموعها التي أبت أن تخفي فسالت حارّة على وجنتيها التي حفر الزمن عليهما أخاديد تبدو لك وكأنها مجرى لفيض دموع لم ينضب حتى الآن.

حاولت إيلينا التخفيف عن السيدة العجوز بأن ربت بحب على ظهرها:

- «هل أحضر لك شيئاً ساخنا عزيزتي؟»

هزّت صوفياً رأسها ببطء:

- «فقط أريد كوب ماء»

بينما كانت إيلينا تسكب الماء لصوفياً كان أدلار يحاول تحليل ما تقوله تلك السيدة فتلك المقدمة التي ألقته على مسامعه كانت صدمة أخرى بالنسبة له.

ولكن شيئاً بداخله يرفض التعاطف معها أو مع تلك الدموع والتي لم يعتبرها أبداً مبرراً أو شافعاً لتغيير تلك الصورة المحفورة داخله، فحثّ السيدة العجوز على الحديث مرة أخرى بينما فتح جهاز التسجيل خاصته بعد أن أوقفه بسبب لحظة صمت العجوز، لتستطرد الأخيرة حديثها:

«أنتم هنا لإعادة توطينكم، وهناك بعض الإجراءات التي يلزم إتمامها قبل تسكينكم في الأماكن المخصصة لكم، والآن أريد جميع النساء أن تأتي ناحية اليمين ومعهن أطفالهن بينما يصطف الرجال ناحية اليسار» هكذا قال الجنرال ميلر رئيس الوحدة الوقائية في معسكر «أوشفيتز» في لهجة حادة وصارمة أثارت الخوف في داخل تلك العائلات والأفراد الكبير منهم قبل الصغير.

كان لهم كل الحق من ناحية ذلك الشعور فما يطلبه ذلك الجنرال

لا يحمل سوى معنى واحد هو الفرقة والفرقة الأبدية بالتحديد ، فبدأت الهمهمات بالارتفاع مصحوبة بأصوات بكاء خافت للبعض ، وعيون الأحبة معلقة ببعضها في نظرات كانت الأخيرة لمعظمنا ، فلا أحد يعلم متى ستلتقي أحداقهم مرة أخرى أو كيف؟ مما أثار حفيظة الجنرال النازي والذي صرخ بصوت عالٍ هيا أسرعوا!

تحركت النساء وهن يُمسكن بأطفالهن بشدة إلى مبنى تمت الإشارة إليه من قبل الجنرال النازي ، بينما تمّ اقتياد الرجال إلى مكان آخر جميعهم ذهبوا فيه إلى المجهول.

تمّ توزيع استمارات لتسجيل بيانات أولية للنساء والأطفال وتمّ اقتيادهن بعد ذلك إلى مكان آخر.

- «فلتضع كل منكن حُلِيِّها ومقتنياتنا في ذلك الصندوق»

تلك الجملة التي أُلقيت على مسامع النساء الأسرى من قبل النازيين ، وبدأت أمي في خلع حُلِيِّها وأقراطنا واضعة إياهم في ذلك الصندوق الذي امتلأ بالمقتنيات الثمينة.

لم تلقي أمي بالأل للتعكير في مصير ذلك الصندوق فجّل ما شغل عقلها هو ما هو مصير أبي ، لتتهمل دموعها الحارة في صمت تام لم ينتبه إليه أحد سواي فرفعت رأسي أثر سقوط ذلك الفيض فوق وجهي فلم يكن مني سوى أن احتضنتها بشدة وسحبتُ يد أختي ليمتد ذراعي الصغير ليطوقها هي الأخرى واكتفينا بالصمت الذي لم يخرجنا منه سوى أصوات الأوامر المرتفعة.

- «والآن تحركن هيا! هيا».

هكذا حثّ النازيون النساء على التحرك لنجد أنفسنا داخل غرفة مقبّية وطويلة جداً كانت على يمينها أماكن للاستحمام وفي المقابل بضع كراسي يقف بجانبها أشخاص في أيديهم مقصات ، لقد كان الأمر واضحاً فسيتم قص شعر النساء وتطفيفهن منعاً

لانتشار الأمراض على حد زعم رئيس الوحدة الوقائية.

جلست النساء تباغاً واحدة تلو الأخرى لقص شعرهن ممثلات للأوامر ومن بينهم والدتي ثم أمر بتجريدن من ملابسهن للقيام بالاستحمام ولكن ما أثار الرعب في قلب النساء والأطفال هو اقتياد البعض منهن خارج ذلك المكان بصحبة أطفالهن.

- إلى أين يأخذونهن يا أمي؟

هكذا القت أختي المرتعدة الأوصال السؤال على أمي بينما كانت متشبثة برداءها المبلل.

ليأتيها جواب أمي بصوت مبجوح بفعل الصدمة:

- «لا أعلم يا جوليا لا أعلم صدقاً.»

- «اصمتي جوليا حتى لا يأخذوننا معهن.»

هكذا كان ردي عليها ، لم أكن أعلم لماذا شعرت وقتها أنني مسؤولة عن حمايتنا ، ربما رهبة الموقف جعلت سنين عمري تزداد مع كل ثانية لأشعر وقتها أنني عجوزٌ عمرها مائة عام رغم كوني طفلة.

-اهدأن حبيباتي فأنا معكما ولن أترككما أبداً.

وبنفس الصوت المبحوح حاولت أمي المسكينة طمأنتنا رغم ارتعاد أوصالها بفعل الخوف والطقس البارد ، حتى جاءنا صوت ينادي:

«ساسي إيزاك وابنتيها صوفياً وجوليا كلود ، تقدمن إلى هنا.»

اتسعت حدقتا أمي حتى ظننت أنها لن ترمش أبداً ، وهبت منتفضة من مكانها بينما لازالت قطرات الماء تتساب من شعرها على وجهها المتجمد مختلطة بدموعها التي باتت تمسحها سريعاً قبل أن يلحظها أحد.

٣٠/١٢٣ ج هذا هو الكود الخاص بك

هزّت أمي رأسها مع جفون مفتوحة ثابتة ، وقد شعرت باستسلامها

في هذه اللحظة ، وتأكدت وقتها أنه لامفر .

ومما زاد الأمر تعقيداً وأثناء إعطاء كل فردٍ منّا الكود الخاص به تنامى إلى مسامعنا صوت صرخات مدويّة يشيب لها الولدان ، كان صراخاً بشرياً لن نسمعه في أيّ مكان في حياتك سوى داخل المعسكرات النازية ، صوت أرواح تتألم بعذاب يفوق القدرة على الاحتمال فتشعر وقتها باهتزاز روحك داخل جسدك رغماً عنك حتى تظن أنها ستفارقك .

ماهذا بحق الإله! هكذا صرّخت النساء داخل غرفة التطهير فلم يجدن إجابة سوى صرخات أعلى وأعلى سقطت على مسامع الجميع كالنيازك الحارقة وارتفعت معها دقات القلوب الفزعة والتي كانت أشبه بقرع الطبول منها لخفقات قلوب ثمّ تبع ذلك رائحة شواء قوية جداً جداً .

-احتاج للراحة أرجوك .

قالتها السيدة صوفياً للدكتور أدلار بعد أن أصبحت تلهتُ أثناء حديثها والذي يبدو أنه أعاد لها ذكريات أدمت قلبها وأعيّت روحها .

-حسناً سيدتي لا بأس بذلك اليوم وسأتيكِ غداً لتكلمين حديثك ، وآسف ان كنت سببت لكِ ازعاجاً .

نهض الأخير بصحبة إيلينا والتي ودّعت بدورها السيدة المسنة طابعةً قبلة على رأسها ؛ فلم تحرك صوفيا ساكناً وكأن روحها مازالت معلقة بين جنبات معسكر أوشفيتز .

- «تبدو شاردًا دكتور أدلار»

انتبه أدلار لكلمات إيلينا بينما كانا خارجين إلى حديقة المبنى فنظر إليها وعلى وجهه علامات استفهام كثيرة ، فاكتفى

---

بالسكوت وأخرج من جيبه علبة سجائره فسقطت تلك الصورة القديمة التي يحملها في جيبه ، فانحنى ليلتقطها بحركة سريعة ماسحاً إياه بأحد أكمامه وكأنه يعتذر للصورة.

تعجبت إيلينا من موقفه ولكنها عللت ذلك لنفسها بأنها ربما تكون صورة حبيبته أو زوجته.

صافح أدلار إيلينا شاكرًا إياها على مجهودها في مساعدته.

– «لا شكر على واجب دكتور أدلار، ربما نعيش في تلك الحياة معتقدين أننا توصلنا لأبعد حدود المعرفة بينما نحن أبعد ما يكون عن ذلك.

وكان إيلينا التقطت بذكاءها ذلك الصراع الكائن في نفس أدلار مما جعل الأخير ينظر إليها بدهشة قبل أن يسحب يده من يدها ويمضي في طريقه إلى الخروج من بوابة المبنى مشعلًا سيجارته. تبعته إيلينا بنظرها ثم استدارت لتكمل عملها فقد كان باقياً على موعد انصرافها ساعتين.

وقف أدلار خلف زجاج شرفة الفندق ينظر إلى المطر الشديد بالخارج وفي يده كوب شوكلاتة ساخنة وكان جهاز التسجيل يعيد حديث صوفيا على مسامعه، ليقاطعه رنين هاتف الغرفة، فأطفأ جهاز التسجيل وقام بالردّ على الهاتف ليأتيه صوت على الجانب الاخر بأنه تمّ توفير المسكن الخاص به خلال فترة إقامته في موسكو. وفي الصباح الباكر انتقل إلى مسكنه الجديد وبدأ في ترتيب مكتبه استعداداً لاستكمال كتابة رسالته وقد سجّل اسم صوفيا إيفانوفيتش تحت اسم الحالة رقم(٢)، وقد بدأ في تفرغ محتوى التسجيل الخاص بالحالة.

وفي الموعد الذي حدده مع دكتورة إيلينا داخل مبنى دار الرعاية والتي استقبلته الأخيرة بودٍ وترحاب قائلة:

- «في موعدك بالضبط دكتور أدلار»

ابتسم أدلار:

- تعودت أن أتحرى الدقة في كامل أمور حياتي دكتورة إيلينا. جلساً معاً لاحتماء الشوكولاتة الساخنة، والتحدث في الكثير من الأمور قبل أن يستعدا للذهاب إلى غرفة صوفيّا لاستكمال سردها لقصتها داخل أوشفيتز.

قرعت إيلينا باب السيدة صوفيّا ليأتيها صوت الأخيرة أذناً لها بالدخول.

- «عمت مساءً جميلتي صوفيّا، كيف هي صحتك اليوم؟»

قالتها إيلينا مع ابتسامة ودودة، ألقى أدلار بدوره السلام على صوفيّا والتي لم يختلف حالها عن الأمس، نفس النظرة البائسة والعيون الدامعة وأحاديث خطتها الأيام على وجهها، كان الفضول يملأ صدر أدلار عن سبب فقدانها لبعض أعضائها بتلك الصورة البشعة. صمتت السيدة صوفيّا قليلاً قبل أن تكمل قصتها الحزينة:

«لَم أَرِ والدي منذ أن افترقنا، وظلّت أُمي معنا فترة لا أعلم كم هي، دُقنا فيها طعم الخوف في كل لحظة، كانت رائحة الموت هي المميزة لذلك المكان البغيض، يأتي القطار بصفة دورية يلقي بالأسرى كأكياس القمامة ويتمّ تصنيفهم جزء للعمل الشاق وجزء للموت وكلاهما يؤدي إلى الهلاك الأبدي.

كانت الصرخات تتردد دائماً بين جنبات هذا المكان الموحش، فلم تكن صيحات الألم التي سمعناها بعد دخولنا المعسكر سوى

لأناس اختار لهم النازيون الموت كأول خيار، إما لمرضهم أو ضعف صحتهم أو حسب أهواء النازيين الشخصية، فصحتك الجيدة تضمن لك العيش لبضعة أيام مقبلة؛ فهذا يعني أنك قادر على الخدمة بالسخرة أو أنك ستُعينهم على التطور الطبي بأن تكون فأراً للتجارب مثلاً.»  
اعتدل أدلار في جلسته بشكل يوحي أنه منصت بشكل جيد لكلام السيدة صوفياً التي اجترت ذكريات عصبية.

- صوفيا.. صوفيا!

- نعم جوليا.

- لقد أخذوا والدة «كارلا» صديقتنا.

- يا إلهي! لماذا؟

- لقد أصابها التيفويد

شبهت وقتها شهقة مكتومة فوضعت أختي يدها على فمها مخافة أن نسمعنا أحد.

- ليس هذا الأمر كله فأنت تعلمين جيداً أن والدتنا تعمل بجوار والدة «كارلا» في الحياكة.

نزل الخبر على كالصاعقة التي ضربت سطح الماء ليسري فيه تيار كهربائي كفيل بحرق مدينة بأكملها وانهمر الدمع من عيني محتضنة أختي، فقد كان يعني هذا أن والدتي معرضة للإصابة بالعدوى حينها سيكون مصيرها مثل مصير والدة كارلا إماً المحرقة أو غرفة الغاز.

تلك الغرف التي يقتادون إليها ضعاف البنية والمرضى، إنها غرفة طويلة يُجرّ إليها المحكوم عليهم بالموت دون محاكمة، يغلق عليهم الباب ويتم فتح الغاز فيركض الجميع نحو الباب محملين بأمل زائف

في النجاة في محاولة غريزية للبقاء على قيد الحياة وهم يصارعون الموت مع أطفالهم.

تلك المحارق التي إن نطقت فستشهد على أهوال العذاب التي واجهتها أرواح الأبرياء داخلها ، مئات من الجثث بل أحياناً آلاف يتم التخلص منها يومياً داخل المعتقل على مرأى ومسمع منا جميعاً بل ويزداد الفجور بأن كانوا يأمرن الأسرى بالتخلص من جثث ذويهم وزملاءهم بأنفسهم.

حتى جاء دكتور «جوزيف مينغلي» ، وحسب ما سمعنا فهو طبيب عكف على تطوير الطب ودراسة علم الوراثة ولكن بطريقته الخاصة.



دق باب غرفة صوفياً فكانت إحدى الممرضات واقفة طالبة الدكتورة إيلينا.

خرجت إيلينا تاركةً أدلار مع صوفيا والذي استدار موجهاً حديثه لها باللهجة الروسية ليحثها على تكلمة حديثها؛ فتعجبت صوفياً كيف لألماني أن يتحدث الروسية بتلك الطلاقة؟ فقال لها:

- لا تعجبين سيدتي فقد علمتني أمي إياها منذ الصغر.
- إذن لماذا لم تتحدث معي بالروسية منذ البداية؟
- صمت أدلار وهو ينظر لعين السيدة صوفياً ، ولم يستطع الرد.
- لقد فهمت ، لا داعي للرد.
- دخلت إيلينا مرة أخرى إلى حجرة صوفياً معتذرةً عن خروجها فقد كان هناك ثمة من يحتاجها.

---

- لا تعتذري عزيزتي، فالسيد أدلار يتحدث الروسية بطلاقة، لم أشعر بالوحدة إطلاقاً.

اندهشت إيلينا ولكنها حاولت أن تخفي دهشتها قائلة بلهجة تحمل بعض المزاح:

- هذا جيد يبدو أن دكتور أدلار كان يختبر إنجليزيتنا.



## ملاك الموت

«أنا دكتور «جوزيف مينغلي» الطبيب المسؤول عنكم جميعاً»..

تلك هي الكلمات التي ألقاها دكتور مينغلي على مسامع الجميع في الطابور الصباحي الإجباري الذي لم يرحموا فيه ضعف صغير ولا كبير، غير عابئين بالبرد القارس ولا الثلوج التي حوّلت كل شيء للون الأبيض.

- «أنا أريد أن يتمتع الجميع بالصحة الجيدة لنضمن لكم مستقبلاً أفضل».

- «والآن أريد منكم أن تذهبوا هناك وتستدوا إلى الحائط الذي خلفكم».

قالها دكتور مينغلي في برود مثير للأعصاب، ورغم هدوءه إلا أنه كان خلف نبرته شيئاً مريباً.

نظرنا جميعاً إلى الخلف لنجد أمامنا حائط مقسّم لقياس الأطوال، شعرنا بالدهشة المطعّمة بالخوف كحال أي شعور داخل معسكر أوشفيتز لا بد من امتزاج الخوف معه.

وبالفعل أخذ الجنود النازيون بعض من المعتقلين لقياس أطوالهم تبعاً ولكن ماذا كان مصير من لم يصل طوله إلى أي من القياسات الموضوعية والتي قُسمت للنساء والأطفال والرجال؟

كان مصيره المحرقة أو غرفة الغاز على الفور حسب أوامر دكتور مينغلي، والذي وضع الأطوال وفقاً لنظريته في محاربة مرض التقزم الوراثي أما الأطفال فقد أمر بجمعهم في مبنى مستقل.

صرخت والدتي فور سماعها ذلك الخبر صرخة مدوية خرجت رغماً عنها:

- اتركوا بناتي أرجوكم أتوسل إليكم، وركضت نحو دكتور مينغلي راكعةً تحت قدميه أرجوكم اتركوا بناتي وتعالتي صرخات النساء بالتوسل للنازيين أن يتركوهم مع أبناءهم، ولكن رئيس الوحدة الوقائية احتدّ عليهن جميعاً وأطلق بضع رصاصات في الهواء تجمدت على أثرهن والدتي مكانها تحت قدمي دكتور مينغلي بينما باقى النساء انقطعت اصواتهن من شدة الخوف، فهم قادرون على قتل أطفالهن أمام أعينهن بدون أدنى تردد.

اندفع الجنود نحو والدتي لمحاولة دفعها بعيداً عن دكتور مينغلي ولكن الأخير أشار لهم أن يتركوها، كانت أمي شديدة الجمال ويبدو أنها أعجبت دكتور مينغلي فانحنى الأخير ليرفعها عن الأرض ولكن بمجرد أن لمسها انتفض كأنه ارتطم بصبارة، فاندفع إلى الخلف صائحاً:

- اقتلوها فوراً إن حرارتها مرتفعة إنها مريضة، وظل يعقم يديه بشكل مبالغ فيه.

هَبَّ الجنود المجهزين لهذه المهمة نحوها، وتمّ جرها وهي تصرخ متوسلة:

- بناتي أرجوكم اتركوني أعيش أتركوني وسأكون خادمتكم، ضعوني في أحط الأعمال ولكن اتركوني، اتركوني لأعيش بجوارهما.

لم يرحمها أحد ولم يعبأ النازيون لصرخات طفليتها.

لفت التوأمتان نظر دكتور مينغلي والذي لمعت عيناه فور رؤيتهما كأنما وجد ضالته فيهما.

ومرة ثانية يتفرق شمل باقي الأسرة، ابتعد صوت أمي المسكينة ولكنها لم تتوقف عن الصراخ حتى أختفى صوتها إلى الأبد.

لأول مرة وحيدتان أنا وأختي، أب اختفى منذ لحظة وصولنا فاختفى معه الإحساس بالأمان وتلاشى معه أي أمل في الخروج من معسكر الموت، وأمّ سمعنا صوت خروج روحها يزلزل كياننا محاولاً أرواحنا إلى أشلاء مشوهة ليتركونا أجساد خاوية ألقوها داخل حجرة تتبعث منها رائحة الموت.

احتضنتُ جوليا بشدة ودخلنا في هيستريا من بكاء الأطفال بشكل يدمي قلب الحجر حتى خيل إليّ أن أنفاسنا قد توقفت من فرط البكاء، كنت أربّت على ظهرها بيدي الصغيرة بينما كان يرتفع بكاءها، وقتها أدركت أن بما أنني التوأم الأكبر بلحظات من جوليا فقد حتمّ علي الأمر أن أكون مسؤولة عنها مسؤولية كاملة منذ تلك اللحظة والتي شعرت فيها بقوة تحمل شديدة دبت في أوصالي، وثبات غريب في محاولة غريزية مني للحفاظ على أختي والتي أصبحت هي كل عائلتي ووجدت نفسي احتضنها حضن أمّ مكفكفة دموعي وبدأت أغني لها نفس التهويدة التي اعتادنا على سماعها منذ لحظة ميلادنا وفي تجهم مني بدأت أردد:

- «عصفورتي الصغيرة يوماً ما ستكبر، لتبحث عن غدٍ أفضل و أعدّها أن لا أتركها إلا لنعيمٍ مخلد.. إلا لنعيمٍ مخلد».

اشتد بكاء السيدة صوفيا عند هذه اللحظة وهي تردد إلا لنعيمٍ مخلد..وصمت كل من أدلار وإيلينا لرهبة الموقف.

لأول مرة يتعاطف أدلار مع شخص من جبهة الأعداء على حد وصفه، ولكن الإنسانية تقف هنا موقف السيد.

احتضنت إيلينا السيدة صوفيا وطلبت من أدلار أن يتوقف عن التسجيل وليكملوا عملهم لاحقاً، احترم أدلار ذلك وهبّ واقفاً وربّت

على كتف السيدة صوفيا معتذراً إذا سبب استرجاع الذكريات لها  
ألمًا. اكتفت صوفيا بالنظر إليه دون أن تنطق، فتحرك أدلار بصحبة  
إيلينا إلى خارج الغرفة.



- «أسمح لي أن أدعوك للعشاء الليلة؟ هناك مطعم أعشق  
أكلاته».

قالتها إيلينا بعد أن خرجا من حجرة السيدة صوفيا.

نظر أدلار إليها قائلاً:

- بكل سرور.

- «حسناً موعدنا في التاسعة مساءً وهذا هو العنوان لا تتأخر».

- لن أتأخر.

وفي المساء ارتدى أدلار حُلة أنيقة وغرق في سحابة من العطر  
ثمَ نظر إلى نفسه في المرآة ليطرق برأسه عندما أدرك كمَّ الشيب  
الزاحف إلى شعره.

« أه يا أدلار لأي مدى نسيت نفسك؟ هل تتذكر آخر مرة خرجت  
فيها في موعد؟ انظر إلى وجهك، لقد كاد شبابك أن يودعك وأنت  
في منتصف الأربعينيات، ولم تنعم بلحظة استقرار حتى الآن؛ فمتى  
سوف ت...» وفجأة رن هاتف منزله ليقطع ذلك الفيض من ملامة  
النفس مُعلنًا وصول سيارة الأجرة التي ستقله إلى المطعم.

كانت الأجواء رائعة وقد تألقت إيلينا في ثوبٍ أسود فازدادت  
جمالاً مع ذلك التباين بين ثوبها ولون بشرتها البيضاء، فبدت كأن  
لها جسد من نور، وشعرها الأحمر المنسدل على كتفيها كان  
أشبه بلحظة غروب الشمس وهي تغطس في زبد البحر الصافي.

تحدثا كثيراً وضحكا أكثر، كانت ابتسامة أدلار أكثر من

رائعة مما جعل إيلينا تُطيل النظر إلى وجه دون أن تشعر، فقد جذبتها ملامحه المقسّمة بدقة في تناغم بين وجهه المستطيل وأنفه الطويل والذي تزينه بشارب بني اللون كلون شعره وقد ازدان ببعض الشيب مما أضفى عليه لمسة من الوقار مع عيون بلون المروج الخضراء.

شعر الأخير بالإحراج محاولاً الاعتدال في جلسته وقد احمرت وجنتاه وقال في تلعثم:

- لم.. لم.. لم تحديقين في وجهي هكذا؟

ضحكت إيلينا:

- جذبتني ضحكتك، لماذا دائماً تخفيها؟

لا شيء سوى لأنني لا أملك وقتاً لرفاهية الضحك، فكل وقتي لعملتي وأبحاثي.

فنطقت إيلينا بعفوية:

- وزوجتك وأسرتك؟!

شعرت إيلينا بالحرج لاندفاعها في التدخل في حياة أدلار الشخصية بهذا الشكل.

- آسفة.. لم أقص...

قاطعها أدلار:

- لا بأس فلست متزوجاً وليس لدي عائلة.

تهللت أسارير إيلينا عندما سمعت ذلك الخبر لتتطق بعفوية وبراءة طفلة:

- «ها نكمل طعامنا فهذا الطبق من اللحم لا يأكل إلا ساخنًا».

استمتع كلاهما بتلك السهرة الرائعة وتبادلا أطراف الحديث

طيلة الوقت، كان هناك الكثير من الأشياء والميول المشتركة فيما بينهما، فكانت تلك الأمسية كافية بإذابة الثلج بين أدلار وإيلينا.



وفي حجرة السيدة صوفيا وفي الموعد المتفق عليه مسبقاً عاد أدلار لاستكمال عمله في تسجيل شهادة السيدة العجوز باعتبارها شاهد على الأحداث.

فتح أدلار جهاز التسجيل و شرعت صوفياً في استكمال حديثها عن أهوال معتقل أوشفيتز:

- «شرٌ مطلق تجسد في صورة رجل يتلذذ ويستمتع بإجراء تجاربه العلمية والمختبرية على أجساد السُّجناء ولم يستثنِ من ذلك حتى الأطفال»

صمتت السيدة العجوز لحظات تسترجع فيهن ذكرياتها المحمومة بينما كانت أعين أدلار معلقة بها قبل أن تستطرد:

- كان من المفترض أن يكون طبيباً يعالج الناس ويخفف آلامهم ولكنه تحول إلى وحشٍ كاسر يتلذذ بأنين ضحاياه، لا يضجر ولا يمل من الدّم لقد استحق وبجدارة لقب ملاك الموت.

الموت إلى اليسار والحياة إلى اليمين، هكذا تحدد مصير الآلاف بإشارة من يد مينغلي والذي كان يُعد من أهم الجينرالات النازيين.

حاولنا التأقلم أنا وأختي على الوضع الذي فرضته الظروف علينا ويوماً ما حدثتني جوليا بما يدور في نفسها وكنت أريد محاولة طمأننتها:

- «صوفيا أنا خائفة»

- لا تخافي جوليا فنحن أطفال ماذا عساهم أن يفعلوا بنا؟

«الكثير صوفيًا.. الكثير، ألم تستمعي إلى الصرخات المدوية التي تتردد بين جنبات المكان؟»

-بلى ولكن معظمها كانت أصوات بالغين، اطمئني جوليا.  
اشتقت لأمي وأبي كثيرًا، هل تعتقدين أن والدنا مازال حيًا صوفيًا؟»

-جوليا أرجوك كُفي عن الحديث وأنهى عمك فهم يريدون أحدثهم نظيفة، فأياً منا لا يمكنه تخيل ماذا سيحدث لنا إن خالفنا الأوامر.

كنت أحاول أن أجعل الحديث عن مخاوفها مقتضباً حتى لا أترك فرصة لخيالها أن يتحرك، فقد اكتفينا من الواقع المؤلم ولم يعد في القلب مكان للمزيد.



منذ أن جاء مينغلي إلى أوشفيتز وقد تمّ فصل جميع الأطفال عن ذويهم، لم نكن ندرك وقتها ما الذي يحدث حولنا أو ما هو مصيرنا، لقد فقدنا الإحساس بالزمان والمكان تعودنا على سماع الصرخات، تيّم معظم أطفال معتقل «أوشفيتز»، كنا نصطف كل صباح أمام مينغلي لفحصنا حاملاً الحلوى في جيبه، وتلك كانت طريقته التي تشبه الأفاعي في هدوءها؛ حتى صدقوه الأطفال وأصبحوا ينادونه العم مينغلي، قام بإخبارهم أن ذويهم كانوا حاملين وباءً إن لم يقض عليه سينتشر وسنلقى حتفنا جميعاً وأن حمايتنا واجبة؛ فهو لا يَكُنُّ أبداً كرهاً لأحد بل بالعكس هو يحبنا ويعتبرنا أولاده، كان يربّت على رؤوس الأطفال بمنتهى الرفق والحب قاطعها أدلار:

- ولماذا أطلقت عليه اسم ملاك الموت؟

ابتسمت السيدة صوفيا ابتسامة مُرّة وكأنما عضلات وجهها  
تعاندها فتختفي ابتسامتها قبل أن تبدأ :

- لعلك تساءلت عن سبب التشوهات التي أعاني منها ، صحيح؟  
«نعم سيدتي ولكني أعتقدت أنها إصابات جرّاء قصف قد وقع  
عليكم»

— هي بالفعل إصابة حرب ولكنها لم تكن جرّاء قصف أو حتى  
طلقات نارية؛ إنها كانت تلك الحرب التي شنّها مينغلي على أطفال  
المعسكر.

دق باب الغرفة ودخلت إيلينا :

- «هل تأخرت عليكم»

لَمْ يدرِ أدلار لِمَ تهلت أساريره فور رؤيته لإيلينا ، لأول مرة يشعر  
بشيء من الفرح لرؤية امرأة فلم يكن أدلار أبداً مهتماً بأمرٍ كهذا  
من قبل ، ولكن هذه المرة كان احساسه مختلف..وبشدة.

وفي حديقة دار العجزة جلس أدلار والسيدة صوفيا ومعهما إيلينا ،  
والتي اقترحت استكمال الحديث خارج الغرفة كنوع من التخفيف  
النفسي عن صوفيا ، خاصةً أن الشمس كانت مشرقة في ذلك اليوم.  
واستكملت صوفيا حديثها :

- كفئران تجارب احتفظ بنا مينغلي في أكواخ خاصة ، كنا في  
البداية ممنوحين بعض الامتيازات دوناً عن باقي سجناء المعسكر ،  
كان مسموحٌ لنا باللعب وكنا مستثنين من الذهاب إلى غرف الغاز؛  
فكانوا يطلقون علينا أطفال مينغلي وهذا يعني أن أحداً لا يملك  
سلطة علينا سوى هو.

وفي صبيحة أحد الأيام...

- «إنه صوت إنذار الاستيقاظ جوليا».

- اتركيني صوفيا أريد أن أنام.

«استفيقي هيا إنه ميعاد الطابور الصباحي».

فتحت جوليا عيونها قائلة:

- كنت أحلم أننا في منزلنا ورأيت أمي واقفة تُعدُّ الطعام بينما كان أبي يداعبنا ، لكم اشتقت إليهما كثيرا ، فذاك الطعام الذي يقدمونه لنا لا يشبعني صوفيا»

- «كفالكِ أحلامِ جوليا ، هيا بنا قبل أن يقوموا بعقابنا».

-إنهم يأخذون كمية كبيرة من دماننا كل صباح صوفيا ، أشعر بالإرهاق الشديد ولا أعلم لماذا يفعلون ذلك؟ ولكن عندما سألتهم أخبروني أنه لمصلحتنا ، من يعرف؟ ولكنني حزينة صوفيا من أجل الرضع رأيتهم بالأمس يحاولون سحب الدماء من جسد أحدهم؛ ولكن لصغر جسده قاموا بالسحب من رقبته.

-كُفي عن الثرثرة فقد دق الإنذار الثاني.

- إذن هيا بنا.

اصطففنا كالعادة في السادسة صباحا وجاء مينغلي وأخبرنا أن هناك سيارات ستأخذنا إلى مكان آخر ، فرحنا كثيرا فلم نكن نعلم وقتها أننا مُرسلون إلى مختبرات الموت.

أعطت إيلينا كوبا من النعناع الدافئ للسيدة صوفيا في محاولة لتهدئتها ، بينما شرد أدلار في أمر ما.

فنادته إيلينا:

أدلار.. أدلار!

- نعم إيلينا قالها أدلار كأنما تمَّ انتشاله من بئرٍ سحيقة.

- «سألتك مرتين هل تريد أن تحتسي القهوة لكن يبدو أنك

تفكر في أمرٍ مهم».

قالتها إيلينا بنبرة تحمل بين جنباتها بعض من الغيرة.

ولم تكن إيلينا تعلم طبيعة الصراع القابع في قلب أدلار، فقد قلبت السيدة صوفيًا بكلامها موازين معتقداته كألماني فكان ما ترويه مخالفاً تماماً لما رُسِّخ في عقله وزُرِع في قلبه منذ لحظة ولادته، ورغم أنه لم يصل لغايته بعد من وجوده في موسكو، إلا أن هناك أمر ما قد تغير بالتأكيد في شخصية أدلار.

ابتسم أدلار وهو ينظر إلى إيلينا:

-«لا، بل أريد كوبًا من الشوكولاتة الساخنة».

فبادلته إيلينا نفس الابتسامة مصحوبة بإيماءة هادئة ثم أشاحت بعيونها بعيداً عن عيونه بدلال امرأة تلقت رسالة من عيون رجلٍ تتضح بالإعجاب.

وفي ظل نظرات الإعجاب المتبادلة بين أدلار وإيلينا من خلف أكواب الشوكولاتة الساخنة فتح أدلار جهاز التسجيل مرة أخرى لتستكمل السيدة صوفيًا حديثها عن ملاك الموت، وقد تلاشت تلك النظرات خلف سردها لباقي الحقائق وتبدلت بانتباه شديد.



- «تم جمع التوائم في كوخ منفصل من أكواخ مينغلي، ووصلت السيارات الخاصة بمختبراته والتي ستقل التوائم إلى مكان آخر.»  
قالتها السيدة صوفيًا مستطردة في حديثها ولكن في تلك المرة ومع أول كلمة كانت تسيل دموع السيدة العجوز بين تجاعيد ملامحها كمجرى سيل حُفر بفعل التكرار والاستمرارية.

لقد أخذوا كارلا تلك الفتاة اليتيمة التي تقربت إلينا أنا وجوليا بحكم التواجد في نفس الظروف، لم نعلم وقتها إلى أين؟ أو ماذا سيكون مصيرها؟ حتى عادت كارلا بعد عدة أيام وقد تمّ وضع

ضمادات على أجزاء متفرقة من جسدها بطريقة تُدمي القلب،  
علامات استفهام كثيرة اندفعت نحو عقلي، فكنت أتسلل إلى  
الأكوخ المجاورة في محاولةٍ مني لفهم ما يدور حولنا.

وفي يوم كنتُ أحوم حول الكوخ المجاور، وجدتُ كارلا تخرج  
جثة هامدة؛ فشَهَقْتُ شهقةً مكتومة شعرت وقتها كأنها مرَّقت  
رئتاي، ركضتُ مسرعة نحو كوخنا وقد كانت أوصالي ترتعد  
كسنبلة قمح وسط رياح شديدة، دثرتني جوليا واحتضنتني متساءلة:

- ماذا أصابك صوفيا؟ ماذا أصابك يا حبيبتي؟!

لَمْ أَسْتَطِع وقتها أن أنبث بينت شفة، فقد أجم الخوف لساني،  
كان مشهد جثة كارلا من أبشع ما يكون فقد كانت متعفنة  
والقيح ينقط منها، ومن ثَمَّ وضعوها في كيس قمامة وذهبوا بها إلى  
المحرقة.

أغلق أدلار جهاز التسجيل ولأول مرة تترقرق عيونه بالدمع من هول  
وصف المشهد.

ما كل هذه القسوة؟ وما كل هذا الجبروت؟ وبينما كانت  
نفسه لازالت تحدِّثه قاطعت السيدة صوفيا هذا الحوار الخفي قائلة:

- «لأول مرة ألمح تأثرك بكلامي» وابتسمت بمرارة:

- «لذلك قد وافقت عندما علمت أنك ألماني الجنسية علني بذلك  
أستطيع أن أساعدك في ازاحة النقاب عن أسرار بالتأكيد كانت  
بالنسبة لك مجرد إشاعات يريد عدوكم النيل منكم عن طريقها  
لتشويه تاريخكم المُشرف، ولكني لا أريد منك حُكمًا الآن فقط  
انتظر ريثما أنتهي من حكايتي.

وبضم ملجوم فتح أدلار جهاز التسجيل بينما قد ارتسمت ملامح  
الحزن على وجهه، ثم ربَّت على يد السيدة العجوز لِحْثها على

استكمال حديثها وكانت إيلينا تنظر بأسى نحو المسكينة صوفياً.



كان مينغلي يحوم حولنا كالذئب كل صباح لاختيار فريسته أو ربما فرائسه مستغلاً براءتنا وجهلنا بما يحدث وعدم ادراك البعض منّا لصغر سنهم حقيقة تناقص أعدادنا بشكل ملحوظ، بعد مشهد جثّة كارلا قررتُ أن أعرف ما الذي يحدث حولي، كان عقلي الصغير يهيئ لي أن ذلك سيجعلني قادرة على أخذ موقفاً دفاعي في حال حدوث أمر ما لي أو لأختي ورغم أن الفرق بين لحظات ميلادنا كانت معدودة إلا أنني كنت أعد نفسي المسؤولة عن جوليا خصوصاً بعد فقدان أبويننا، ولكن هيهات، فقد حول مينغلي مختبراته إلى محل قضاة، السلطة المطلقة التي أعطيت له أصابت هذا الرجل بالجنون حتى أنه في يوم من الأيام حين أخبروه أن القمل تقشّى بين مجموعة من الأسرى السيدات، احتجزهن جميعاً وما كان منه سوى أن وضعهن داخل المحرقة!

كُنّ قرابة السبعمئة وخمسين امرأة، قام بحرقهن أحياء متجاهلاً صرخاتهن وتراكضهن اليائس نحو الباب.

كان يسحب الدماء من الأطفال غير مكترساً بصحتهم حتى أن بعضهم برزت عظامه فأصبح كهيكلٍ عظمي ولكنه متحرك وتركهم في مواجهة الموت بدم بارد، وقد استخدم البعض منهم كأسلحة بيولوجية أيضاً.

اتسعت عيون أدلار من هول الصدمة مردداً:

- أسلحة بيولوجية؟ كيف؟

أجابته صوفياً:

- كان يحقن مجموعة من الأطفال بفيروس مثل الطاعون ثمّ

يطلقهم ليعودوا إلى معسكرات أعداءه والنتيجة كانت تفشّي الوباء في المكان وموت الجميع.

والأصعب من ذلك كان حال التوائم. صممت السيدة العجوز قليلاً قبل أن تتطرق:

- لكن اتركني الآن يا دكتور أدلار فأنا احتاج إلى قسطٍ من الراحة.

أشارت إيلينا إلى المساعدين لدفع كرسي صوفياً المدولب نحو غرفتها وتابعتها بنظرها حتى اختفت داخل المبنى.

كان أدلار يرتجف بعد أن ملأت السحب السماء فأخضت شعاع الشمس الدافئ وانخفضت درجة الحرارة فوضعت إيلينا يدها فوق يديه لتتحسس حرارته لتجد يديه باردتين جداً.

انتفض أدلار كمن لدغه عقرب فور ملامسة يدها ليده فتراجعت إيلينا معذرة:

- كنت فقط أطمئن أن حرارتك طبيعيّة ، فأنت ترتجف بشدة.

تلعثم أدلار قبل أن ينهض ملولاً أغراضه قائلاً:

-أعلم.. أقصد لا بأس.. علي الذهاب الآن.

ثمّ ارتدى معطفه بسرعة وصافح إيلينا وخرج من باب الحديقة مهرولاً.

تابعته إيلينا بعيونها وقد امتلأت بفيضٍ من المشاعر وقلبٍ ينذر بميلادٍ حبيّ جديد ، حتى اختفى عن نظرها لتستدير بعدها عائدة نحو المبنى لاستكمال مهامها.



جلس أدلار على مكتبه وهو يراجع تسجيلات السيدة صوفيا وقد دار عقله كعقارب ساعة فقدت القدرة على التحكم، وقع في حيرة كبيرة بين ما كانت تسرده له والدته وبين سرد السيدة صوفيا.

وبينما كان منهمكا في استكمال تدوين تلك الحقائق المخيفة التي سردها السيدة صوفيا، أتاه صوت رنين الهاتف ليوقفه عن عمله فيرد بصوتٍ منهك ليجد على الجانب الآخر إيلينا:

- اعتذر إن كنت قد أزعجتك أدلار ولكني أردت الاطمئنان عليك وسماع صوتك قبل أن أخلد إلى النوم.

ارتفعت دقات قلب أدلار فقد أثار صوت إيلينا في قلبه ذلك الشغف الذي يشعر به عند رؤيتها، ولكن هذه المرة أشعره صوتها بالطمأنينة وسط بحور الحيرة التي يسبح فيها وحده:

- بالعكس أنا سعيد لسماع صوتك إيلينا.

وبدون تفكير استطرد:

- هل تقبلين دعوتي على العشاء غداً.

كاد قلب إيلينا أن يقفز من بين ضلوعها من شدة فرحتها بتلك الدعوة فلم يكن منها سوى أن أجابت وبدون تفكير:

- نعم.. نعم .

ابتسم أدلار ابتسامة واسعة قبل أن يرد عليها:

- «إذن أراك غداً إيلينا».

وأغلق الهاتف بعد أن تمنى لها ليلة سعيدة، وتنهّد تنهيدة حارة حاملة الكثير من المشاعر التي غزت قلبه دون استئذان، كان يسمع كثيراً عن تلك الأحاسيس ولكنه لأول مرة يختبرها بنفسه.

قفزت إيلينا من فوق سريرها وكانت تستمع إلى موسيقى رومانسية هادئة وظلت ترقص مثل حورية بحر فوق صفح الماء، ظلت

ترقص وكأنها بين أحضان أدلار أو هكذا تمننت وهي تردد:  
«أحبك أدلار.. أحبك» واستمرت في الرقص الى أن وقعت فوق  
سريرها مستسلمة للنوم.

وفي الصباح دلف أدلار من باب دار رعاية العجزة في نشاطٍ ووجهٍ  
مبتسم، كان يلقي السلام على الجميع في ودٍ لم يعهده من قبل  
كألماني مع الروس ولكنها مرآة الحب التي تعكس كل جميل  
على روح المُحب.

وصل إلى مكتب إيلينا الذي كان شبه مغلق ليسمع بالصدفة  
حديثها مع أحدهم:

- نعم كنت أحبك بروس.

نزلت الكلمة كصاعقة ضربت سفح جبلٍ فهدمته فوق رأس  
أدلار.

«إيلينا أنا أحبك»

قالها الشخص المتواجد مع إيلينا في الغرفة.

ويبدو أنهما أنهيا حديثهما لأن إيلينا فتحت باب مكتبها وهي  
تقول حسناً أراك غداً يا بروس، وإذ بها تجد أدلار أمامها والذي كان  
متسماً في مكانه وقد امتلأت عيونه بعلامات الدهشة الممزوجة  
بالحزن، بينما كانت عيون إيلينا تترجاه أن يتمهل في الحكم عليها،  
وكان بروس يتنقل بعيونه بين الاثنين وغضب الغيرة يقطر منها، ثم  
نظر إلى أدلار من أسفل إلى أعلى قبل أن ينظر إلى إيلينا قائلاً: أراك  
غداً يا حلوتي، ثم انصرف هذا الشخص من أمامهما.

لم ينتظر أدلار من إيلينا أية تبريرات، فقط أطلال النظر إلى عيونها  
ثم انصرف هو الآخر ولكن بقلبٍ حزين وفم أجمه المشهد.

أنب أدلار نفسه على تلك المشاعر التي اجتاحت قلبه، وقرر أن

يكمل مهامه التي جاء من أجلها متوجهاً مباشرة نحو حجرة السيدة صوفياً والتي كانت قد أنهت للتو فطورها وتحتسي مشروباً ساخناً في انتظار وصول أدلار لكي تسرد باقي معاناتها في معتقل أوشفيتز. وعندما دخل أدلار شعرت أن هناك خطباً ما، ولكنها استحت أن تسأله واستهلت حديثها معه فور أن أشار لها ببدأ الحديث:

- قادمي فضولي إلى مراقبة مختبرات مينغلي ورغم صغر سني إلا إنني كنت أبحث عن طريقة للهروب من المعسكر ولكن حتى أعتى الرجال لم يستطيعوا ذلك، وما شاهدته داخل تلك المختبرات ما زادني إلا إصراراً على الهرب. علمت وقتها أن ملاك الموت هذا يجري اختبارات بشأن علم الوراثة ولتحسين نسل (الجنس الآري). كان لا بد له من اجراء التجارب الوراثة على بشر يعاملون معاملة فئران التجارب لضمان جودة النتائج طبعاً.

صنفت النازية المجموعات العرقية ووضعت العرق الآري في قمة الهرم، متبعاً بالأعراق القريبة منه في النسب مثل البريطانيين وشعوب الفيكينغ القاطنة بأوروبا الشمالية، ووضعت الفجر واليهود والروس في أسفل السلم، وقد آمنت النازية بإمكانية تحسين الجنس البشري بالقضاء على المعوقين وأصحاب التشوهات والأجناس الدنيا في التصنيف العرقي الذي وضعته، لذلك فقد حكم علينا بالإبادة وقبلها بالاستفادة من أعرافنا المتدنية من أجل ضمان حياة أفضل للجنس الآري عن طريق المضي قدماً في تقطيع أجسادنا أحياء.

شعر أدلار بألم يعتصر قلبه، خاصة وأن الأخير كان يأن حزناً عندما وجد إيلينا بصحبة رجل آخر، مما أشعره بألم شديد يمزق صدره.

دلفت إيلينا إلى حجرة السيدة صوفياً؛ فأشاح أدلار بوجهه عنها، جلست إيلينا إلى جوار أدلار ولكنها أبداً لم تستطع التحدث.

شعرت السيدة صوفياً أن هناك خطب ما بينهما لذلك توقفت قبل أن تسأل:

- هل أنتما بخير؟ فجاءت إجابتهما في نفس الوقت: نعم. ابتسمت السيدة صوفياً ثم نظرت إليهما قائلة: هل لي أن أكمل حديثي؟! فجاوبها أيضاً في آنٍ واحد: بالتأكيد. فقالت بلهجة تحمل بعض السخرية:

- إذن فليضع كل منكما ما يحمله في قلبه من هموم جانباً فما سأرويه لكما سيسحق قلبيكما سحقاً.

«أحضروا لي جميع التوائم»

قالها مينغلي لأحد مساعديه في لهجة صارمة.

-حسناً سيدي.

تجمع التوائم أمام مينغلي بشكل مهين وقد برزت عظامهم وطال شعرهم وقد اصطفوا أمامه عراة، أيتام، مسلوبي الإرادة منتظرين إشارة من يد مينغلي لكي يحدد مصائرهم.

- «جوليا وصوفيا كلود تقدماً»

نزلت كلمات الجندي المخول من قبل مينغلي لتحديد مع أي مجموعة فئران سيضعنا عليّ كالصاعقة، كانت أمنيتي الوحيدة ألا يأتي هذا اليوم أبداً، لم يتبق لي في هذه الدنيا سوى شقيقتي وتوأمي جوليا. سألت دموعي رُغماً عني؛ فطول فترة مراقبتي خلصة لمختبرات مينغلي جعلتني أعرف مسبقاً مصيرنا المحتوم، وجل ما تمنيته وقتها أن يُعجل بموتي؛ فقلبي الصغير أبداً لن يتحمل أن تصاب جوليا بأذي أو على أقل ألا أرى هذا بأمر عيني.

لم تستجب السماء لدعواتي وسحبوني أنا وجوليا إلى غرفة مُقبضة باردة مليئة بالأدوات الطبية، يُخيم عليها رائحة لم أدرك غيرها طوال

فترة بقائي في أوشفيتز إنها رائحة الموت، كانت جدرانها كئيبة لدرجة الاختناق وجميع من بداخلها يتحركون وكأنهم آلات وليسوا بشرفي رتابة مخيفة، أصوات معدنية تصدر عن تحريكهم المعدات الطبية يثير الرجفة في الجسد.

وبعد قياس الوزن والطول لكلينا أجروا لنا بعض الاختبارات الطبية الروتينية، ووسط كل هذا لن أنسى نظرات جوليا المتقلة بيني وبينهم، كانت أوصالها ترتعد مستغيثة بي كي أعينها ولكن الخوف ألجم فاهها، كنت أمسح دموعي سريعاً كي لا يلاحظني أحد وأحشائي تتمزق من الخوف، وبعد الانتهاء من كل تلك الإجراءات.

وضعوني أنا وجوليا في غرفة منفصلة، لن أنسى حضنها لي في تلك اللحظة، لم نتحدث.. فقط بكينا وكثيراً.

تمّ وضعنا في مكان أحرأشبه بثلاجة الموتى لم يقل كآبة عمّا قبله بل ويزيد، كانت الليلة حالكة السواد ولم يزر النوم عيوننا حتى بزغ الفجر، تنامى إلى مسامعنا وقع أقدام رتيب يقترب ويقترب، وفتح باب الغرفة الحديدي الثقيل وأصدر صريراً قوياً، دخل شخصان أنا أعرفهما جيداً؛ إنهما طبيبان مساعدان لذلك القصاب مينغلي لم يختلفا عنه كثيراً.

نظرت إلي جوليا نظرة لن أنساها في حياتي قبل أن يجروها بعيداً عني وهي تردد بشفاها: أحبك صوفياً.. أحبك. تركوني وحدي في الغرفة، لأول مرة تنفصل أنا وأختي عن بعضاً البعض منذ لحظة ميلادنا، تذكرت أبي وأمي وكيف كانت حياتنا قبل اعتقالنا من قبل النازيين، دارت الدنيا من حولي وانهرت في منتصف الحجر وأنا أصرخ بصوت مكتوم.. لماذا.. لماذا؟! ماذا اقترفت في حياتي حتى أذق مرار فقد الأحبة في ذلك السن؟! ما هو ذنبي؟! وظللت أخبط

أرضية الغرفة ووجهي في الأرض وأنا أصرخ بدون صوت، أصرخ بقلبي وروحي جوليا.. جوليا وقد أغرقت دموعي أرضية المكان في موضع وجهي. وفجأة سمعت صرخات مدويّة متتالية، كنت قد اعتدت سماع الصرخات بحكم وجودي في معسكر إبادة ولكن تلك المرة كانت مختلفة أنه صوت جوليا انتفضت كمن لدغه عقرب، بتُّ أدور في الغرفة وأنا أصرخ باسم أختي ولكن تلك المرة بصوت مرتفع، لم أعد اكترث لشيء، لم يعد للحياة معنى، تلك اللحظة هي أكثر اللحظات التي تمنيت فيها الموت من كل قلبي، ارتفعت صرخات جوليا حتى اختفت، وخفتت معها روحي وفقدت الوعي.

لم أدر كم من الوقت مرّ ولكني استيقظت لأجد نفسي في غرفة تشبه غرفة العمليات إنَّها الغرفة الرئيسية في مختبر مينغلي. كان السكون يخيم على حجرة السيدة صوفيا قبل أن يقطعه أدلار قائلاً:

- «يبدو أن ما مررت به كان قاسياً جداً جداً سيده صوفيا»

قالها أدلار وقد بدا على ملامحه الأسى والحزن البالغين، أما إيلينا فقد شعرت أن قلبها ينشطر نصفين ألماً وكدرًا جرّاء حديث صوفيا، فرغم عملها كطبيبة نفسية ضمن فريق عمل مسؤول عن صحة نزلاء الدار إلا أنها لم تسمع تلك التفاصيل من قبل؛ فذلك النوع من الذكريات لا يُحفظ به في ملفات ورقية لأن محلّه الوحيد هو القلب.

كان من المفترض أن ينتهي من العمل على حالة صوفيا اليوم ولكن في تلك المرة أدلار هو من طلب التوقف عن تكلمة قصتها نظراً لحاجته الشديدة إلى الراحة.

انزعجت إيلينا عندما همَّ أدلار بالانصراف وهو على تلك الحالة فهرولت خلفه وهي تتأديه:

-أدلار.. أدلار انتظر أرجوك.

توقف أدلار في مكانه ولكنه لم يلتفت إليها ، مسكت إيلينا ذراع أدلار برفق قائلة:

-أريد أن أفسر لك ما رأيته في مكتبي.

نظر إليها أدلار قبل أن ينطق بلهجة صارمة:

- أولاً أنا هنا للعمل وللعمل فقط ، ولا أملك أريحية الوقت لغير ذلك ، أما ثانياً: فحياتك الشخصية لا تعينني في شيء فلم أسألك عنها وبالتالي لا أحتاج تفسيرك.

ثم سحب ذراعه الذي كانت إيلينا لاتزال ممسكة به بشدة وانصرف.

اعتصر الحُزن قلب إيلينا وسقطت دموعها ، وفي نفس الوقت أدركت أن شعورها تجاه أدلار تخطى مرحلة الإعجاب ، بل تبين لها أنه يبادلها نفس المشاعر.

عاتب أدلار نفسه على تلك الأحاسيس المبعثرة داخل صدره ، تمنى أن تكون تلك المشاعر شيء مادي ملموس يمكنه التخلص منه وإلقاءه بعيداً عن قلبه في الوقت الذي يريده.

ولكن هكذا هو الحب يقتحم القلب بدون استئذان متجولاً في روحك ودمك راسماً صورة الحبيب بين حنايا قلبك بدون أدنى سيطرة من المحب على ذلك المحتل وربما لا يفارقك إلا بخروج الروح من الجسد.

جلس أدلار بين أوراقه وجهاز تسجيله ليدون المعلومات الخاصة برسالته العلمية ، وبعقل مشوش وذهن شارد لم يستطع أن يكتب كلمة واحدة ، صورة إيلينا وحديثها مع ذلك المدعو بروس كانت تقتله في اللحظة ألف مرة ، وراح يسأل نفسه:

- لماذا كانت تبادلني الإعجاب؟ لماذا يسرت لي الطريق إلى قلبها واقتحمت قلبي وجوارحي بعدها بتلك القوة؟  
أخذ نفساً عميقاً ثم زفر زفرة حارةً واضعاً وجهه بين كفيه لم يخرجه إلا ذلك الذي دق باب منزله بدون موعد سابق، نظر أدلار إلى تلك الساعة الكبيرة المعلقة على حائط غرفة مكتبه ليجدها تخطت العاشرة، فمن ذا الذي يأتيه في تلك الساعة المتأخرة؟ كل هذه الأفكار جالت في خاطره بينما كان ذاهباً ليفتح الباب ليتفاجأ بإيلينا واقفة أمامه تحمل مظلتها لتقيها شدة المطر في الخارج.  
«أسفة على مجيئي في تلك الساعة المتأخرة بدون ميعاد» قالتها إيلينا.

فأجابها أدلار بطريقة رسمية:

- لا عليك دكتورة إيلينا، تفضلي فالمطر شديد بالخارج.  
دخلت إيلينا على استحياء ثم توقفت ناظرة لعيون أدلار: أدلار أرجوك دعني أوضح لك بعض الأمور.  
فأجابها أدلار بصرامة:

- إن كانت أمور تخص العمل فيمكننا مناقشتها غداً، عدا ذلك فليس هناك داعي للخوض في أمور لا تعينني.  
اعتصرت كلماته قلبها ولكنها أصرت على الحديث فاستكملت حديثها والدموع تملأ عينيها:

- منذ قرابة ثلاثة أعوام تعرفت بشاب، كنت أظن أنني أحبه وتزوجنا ولكن خاب ظني فيه، فلم يكن هو فتى أحلامي الذي لطالما حلمت به، فأقمت دعوة في المحكمة وحصلت على الطلاق فور تقديم مستندات تفيد ضربه وخيائته لي، ومنذ ذلك الوقت وهو مستمر في ملاحظتي بشكل استفزازي، واليوم جاءني يريد أن

يتحدث معي بشأن التغييرات التي حدثت في شخصيته وأنه أصبح ذلك الإنسان الذي حلمت به ، وقد وافقت على مقابلته كما سمعتني فقط لأنهي الأمر بهدوء؛ ولكي أخبره أن هناك شخصاً آخر استملك قلبي وسكن في حناياه ، إنه أنت أدلار.

كشخصٍ مثل أدلار يشعر بالحب لأول مرة؛ حتماً ستتوه الكلمات منه ويشعر أن لسانه مقيد ولكنه اكتفى بالصمت رغم أن قلبه كاد يقفز من صدره لشدة فرحه باعتراف حبيبته له بحبها وبرائها من التلاعب بمشاعره، هكذا كان حال أدلار الذي فضحته عيناه بفيض حبٍّ لم يمكنه السيطرة عليه؛ مما شجع إيلينا أن تقترب منه هامسة بصوتٍ هادئٍ:

- أحبك أدلار.. أحبك.

فلم يكن منه سوى أن عانقها وهو يردد:

\_ أحبك إيلينا.

وغرق الحبيبان في نهر من الشوق الجامح بتناغمٍ حالمٍ ، وشربا منه حتى أرتوى كليهما.

كان صباحاً مشرقاً استيقظ أدلار مبكراً كعادته وراح يندندن بأغنية رومانسية بينما كان يرتدي ملابسه وصورة إيلينا وهي تفصح له عن حبها لم تفارق خياله وصار يردد بصوتٍ مسموع:

- أحبك إيلينا.

ذهب إلى دار العجزة ليستكمل تسجيله لشهادة صوفيّاً ولكنه مر على مكتب إيلينا أولاً ووضع لها باقة صغيرة من الزهور وورقة مكتوب فيها أحبك وكفى.

كانت إيلينا تمرّ على النزلاء قبل أن تدخل مكتبها لتجد رسالة أدلار مصحوبة بباقة لافندر ، فاحتضنت الباقة بحبٍّ شديدٍ وأغمضت

عينها وراحت في بحر من العشق ، لم يخرجها منه سوى صوت إحدى الممرضات تطلبها في حجرة السيدة صوفياً .

ابتسم أدلار ابتسامة مفعمة بالحب فور رؤيته لإيلينا عندما دخلت حجرة السيدة صوفياً ، احتلت لغة العيون بينهما مكان أي لغة في العالم وتدفقت حمم العشق لتغرق الحبيين في بركان الحب بينما تدفق بركان آخر من الذكريات الأليمة في قلب صوفيا عندما شرعت في استكمال سردها المؤلم عن أحداث مختبر الموت :

- وجدت نفسي ممددة على منضدة قاسية باردة ، أنظرُ إلى سقف مزوّد بكشافات كبيرة قوية الإضاءة حاولت أن أتلفت حولي في محاولة مني لاستيعاب ما يحدث ، لمحت فتاة مُستلقية هي الأخرى على منضدة مجاورة وكان مينغلي ومساعديه منهمكون في العمل عليها بوحشية والدماء تغطي معافهم ، وذاك الصوت المعدني للأدوات الطبية ولكن تلك المرة كانت الأدوات ترتطم بعظام الفتاة الراقدة أمامهم في استسلام تام ، مددت رقبتني بصعوبة ومن النظرة الأولى لهيئتها أيقنت أنها هي توأمي ، ومن تبقى لي في تلك الحياة القاسية .

كانت صامته.. جامدة لا تحرك ساكناً ، حاولت النهوض ولكنني كنت مقيدة الأطراف ، فرفعت رأسي بصعوبة لأرى أكثر المشاهد ألماً ووجعاً ورعباً على الإطلاق ، فقد كان صدر جوليا مشقوقاً طويلاً وأحشاءها متدلّية غارقة في دماء بدأت في التجلط مما يوحي أنها قد فارقت الحياة منذ فترة ومع ذلك لم يرحمها ، لم يستوعب عقلي الصغير وقتها ذلك المشهد لتدور الدنيا من حولي بعدها وأفقد الوعي مرةً أخرى .

صممت السيدة صوفيا كعادتها عند سرد مشهد مؤلم من واقع تواجدها في أوشفيتز ، ولكن وقع هذا المشهد بالذات كأن قاسياً

جداً عليها ، استنشقت بعض الهواء في محاولة منها لتخطي ذلك الشعور واصبرت على استكمال حديثها منتحبة:

- لم يكن هناك أي قانون ولا أي جهة لردع مينغلي ، والتوقف عن تلك الجرائم السادية في حقنا كأسرى بل كان من المدللين من قبل الحكومة النازية فملاك الموت يعمل على تحسين سلالتهم الآرية ، حسب أيولوجيتهم النازية بإبادة جميع الأعراق في سبيل خلو جنسهم من الأمراض الوراثية وغير الوراثية.

قاطعها أدلار على غير عادته في تركه لها حتى تنهى حديثها ناطقاً في دهشة:

- «أكان كل ذلك تحت سمع وبصر الحكومة الألمانية؟ أتوقع سيدتي أنك مخطئة في هذا الأمر وإلا لماذا تمت محاكمة الأطباء الذين أجرموا وهم قلة وكل شعب به الصالح والطالح وتعد محاكمات «نورنبرغ» من أشهر المحاكمات التي شهدها التاريخ المعاصر».

ضحكت صوفياً ضحكة باهتة قائلة:

- وأليس هذا دليلاً على صحة كلامي؟!

شعر أدلار بالحرج من سؤال صوفياً فلم يجد رداً مناسباً لتبرير تلك الجرائم اللاإنسانية حتى وإن كانت حوادث فردية من أشخاص تمت محاكماتهم حسب اعتقاده؛ فرواية السيدة صوفياً أثبتت عكس ذلك ، فلم يتوقف الأمر عند شخص أو اثنين بل كان انتهاكاً ضارياً في حق الكثير من الأبرياء.

اكتفى أدلار بالسكوت قبل أن يبتسم ابتسامة خائفة دليلاً على شعوره بالخجل من تبريره الواهي أمام سيدة تجرعت العذاب والظلم بشتى أنواعه.

حتى أن السيدة صوفيًا شعرت بخجله؛ فشرعت في استطراد باقي كلامها دون أن يطلب أدلار منها ذلك:

«صوفيا كلود تقدمي» جاءني من ينادي على اسمي وأنا مستلقية على فراشٍ بالٍ وقد برزت عظامي وأصبحت مجرد هيكلٍ عظمي مكسو بالجلد ، بعيونٍ جاحظةٍ وحليقة الشعر تقدمت نحو الباب لئتم أخذني ليستكمل مينغلي باقي أبحاثه عليّ كما قد بدأها على أختي والتي علمت بعد ذلك أنه أجرى جراحته الإجرامية عليها دون مخدر حسب ما اعتاد فعله بالأطفال دون أن ترمش له عين.

بُترت بعض أصابعي وقدمي كما ترى في أحد التجارب الفاشلة ، لئيتساوى التشوّه الخارجي لجسدي مع التشوّه الداخلي لروحي كل على حدٍ سواء ، ومنا من أصيب بالعمى ومن قد أصيب بالشلل وتم إهماله حتى مات ، ومن التوائم من تمت خياطتهما بعضهما البعض زعمًا من ملاك الموت أن قد يُمكنه ذلك من استكمال بحثه في علم التوائم الملتصقة ، حتى تعفنت جروحهما ليلقوا نفس مصير جوليا وغيرها.

احتضنت إيلينا السيدة صوفيًا بشدة في محاولة للتخفيف عنها حتى لا تسوء حالتها النفسية جرّاء اجترار تلك الذكريات الدامية قائلة:

«أنتِ سيدة قوية وجميعنا يفخر بكِ ، وبالتأكيد أن جوليا ووالدك ووالدتك وغيرهم في نعيمٍ أزلي لا يوجد به ألم وقد تحرروا من أجسادهم ليتحولوا إلى أطياف تطوف حولنا الآن قائلين لك: نحن بخير صوفيًا فاطماني».

وأحكمت إيلينا ذراعيها حول صوفيًا مستطردة «اطمئني صوفيًا.. ششش اطمئني.

---

- «آسف للمقاطعة»

قالها أدلار ليستكمل بعض النقاط قبل أن ينتهي من قصة السيدة

العجوز:

- «ولكن سيدتي كيف نجوتِ بحياتك من المعسكر؟»

مسحت صوفياً دموعها وهي تُبعد جسدها عن ذراعِي إيلينا بهدوء

قائلة: إنها معركة الهروب الكبير يا دكتور أدلار كما أطلقوا عليها.



## قلب حائر

شعر أدلار أن السيدة ستشعر في سرد قصة معركة الهروب الكبير قبل أن تفاجأه بأن هناك شخصاً آخر هو من يستطيع سرد تلك القصة أفضل منها ، شخص تجرّع من المعاناة ما يكفيه ليكون هو بطل معركة الهروب الكبير ، إنه «فلاديمير ديمتري».

هزّ أدلار رأسه قائلاً:

- ليتني أستطيع مقابله!

نطقت إيلينا بسرعة لكي تنقذ حبيبها من الحيرة:

- إنه نزيل هنا يا أدلار.

تهلّلت أسارير وجهه فور سماعه ذلك الخبر ، فذلك يعني أن هناك منجماً من المعلومات سيُفتح أمامه.

وقبل أن ينصرف أدلار هبّ واقفاً ليشكر السيدة صوفياً على حسن تعاونها معه ولكن هناك كلمة أخيرة ودّ أدلار توجيهها للسيدة صوفيا:

- كوني ألماني الجنسية أعتذر منك سيدتي عن أيّ ألمٍ عانيتيه وعن كل ظلم وانتهاك تعرضتي له أنتِ وأسرتكِ ، أتمنى أن تقبلي اعتذاري ، وآسف إن كنت قد حرّكت بداخلك الماء الراكد.

- لا داعي للاعتذار ، فالماء لم يصف يوماً دكتور أدلار ، فتلك الذكريات ستلاحقني حتى تدفن معي في قبوري ، ولكنني سعيدة كوني صححت لك بعض المفاهيم؛ فشتان بين سلامك لي الآن وأول مرة التقينا فيها ، أتمنى أن أراك مرة أخرى.

فردّ أدلار:

- وأنا أيضاً سيدة صوفيّا، أراك على خير. لملم أدلار أدواته وأوراقه التي يدون فيها ملاحظاته وهم بالخروج بصحبة إيلينا.

ضفطت إيلينا على يد أدلار وهو يودعها عند بوابة المبنى وهي تنظر في عيونه بعيونٍ ذابت عشقاً فيه:

- سأراك الليلة؟

- كنت أودّ ذلك حبيبتي ولكني مشغولٌ الليلة بتفريغ محتويات باقي التسجيلات الصوتية للسيدة صوفيّا وسوف ...، قاطعته إيلينا بلهجة تحمل بعض الصرامة: هل سأراك الليلة أدلار؟ ابتسم أدلار عندما تبين ملامح الغضب على وجه حبيبته والذي لم يزد لها إلا جمالاً وبراءة فكانت مثل الطفلة الصغيرة متعلّقة في ذراعه فلم يستطع أن يكسر قلبها فهو أيضاً يشفقُ إليها كما هي بل أكثر.

وفي المساء انهمك الحبيبان في تناول العشاء في مطعمهما المفضل والتحدّث عن السيدة صوفيّا وأراد أدلار معرفة بعض المعلومات عن «فلاديمير ديمتري» تلك الشخصية التي ذكرتها صوفيّا في آخر حديثها والذي كان مسؤولاً عن هروب الأسرى من معسكر أوشفيتز سوبيبور، حتى استوقفته إيلينا في مرح طفولي قائلّة:

- كفى حديثاً عن العمل، ألا تستطيع التحدث في شيءٍ آخر.

ضحك أدلار قائلاً:

- مثل ماذا؟

استشاطت إيلينا غضباً ثمّ جزت على أسنانها:

- مثل الشجر والسيارات والطاولات، ثمّ وضعت قطعة لحم كبيرة داخل فمها وتحدّثت بضمّ مليء بالطعام، تحدّثت عن اللحم نعم

فهو جيد ثمّ تمتّمت بكلمات غير مفهومة لينفجر أدلار ضاحكاً من تعابير وجهها قائلاً:

- بلى يمكنني التحدث عن شيء آخر.

فقالت بتهكم:

- مثل ماذا؟

فجاءها الرد:

- مثل عيونك التي أغرق داخلها وقلبك الذي أسمع دقاته الآن وحبك الذي غير حياتي.

احمرت وجنتاها من الخجل وأطرقت برأسها في صمت مُستحق داخل حرم الحب، انتهى الحبيبان من العشاء وودّع كل منهما الأخر بعد انتهاء بطريقتهما الخاصة.

وفي صباح اليوم التالي استغرق أدلار الكثير من الوقت في تفرغ محتوى التسجيلات للجزء الخاص بالأسرى من الأطفال على لسان السيدة صوفياً، وتوثيق كلامها ومطابقته بالكثير من المصادر والأبحاث التاريخية، ورتب أوراقه في تلك الجزئية واتجه مباشرة إلى جامعة موسكو لمناقشة دكتور أليكسندر في آخر مستجدات الرسالة. استقبله الأخير بابتسامته الباردة المعهودة ولكنته الروسية الطاغية على إنجليزيتها، فلم يتغير شيء في الأمر سوى أدلار نفسه والذي لم يواجه نفس الشعور لحظة دخوله إلى الجامعة أوّل مرة، لقد كان هادئاً مستقراً داخلياً.

يبدو أن حديثه مع السيدة صوفياً صحح لديه الكثير من المفاهيم أو ربّما الحب الذي دق بابه ليدفئ قلبه ويصح بصيرته.

تمت المقابلة وقد أشاد دكتور أليكسندر بالجزء المكتوب من رسالة أدلار والذي التزم فيه المهنية لأقصى درجة على عكس

توقعاته ، فقد اعتقد أليكسندر أن شخصاً ألماني الجنسية أبداً لن يكون على هذا القدر من الشفافية في سرد أسرار ستظل وصمة عار على جبين الألمان ، فقد أسهب في التفاصيل كما هي دون تحريف أو تضليل.

\_ «أكاد أؤكد لك حصولك على الدرجة العلمية مع مرتبة الشرف أدلار».

قالها دكتور أليكسندر في نهاية المقابلة.

\_ هذا شيء يسعدني دكتور أليكسندر.

\_ إذن ما هي خطتك القادمة في الجزئية الخاصة بالبحث الميداني؟

\_ سأستكمل مقابلاتي مع الناجين من المعتقلات وتدوين شهادتهم كأفراد عاشوا ذلك الواقع.

صمت دكتور أليكسندر قليلاً وقد ملأ وجهه علامات استفهام كثيرة قبل أن ينطق: الحقيقة أنا متعجبٌ منك يا أدلار ولا أقصد أبداً التدخل في حياتك ولكن هناك شعور دفين داخلي أن الأمر يتعدى كونك تقوم بتحضير رسالة علمية.

استقبل أدلار كلمات دكتور أليكسندر بارتباك شديد حتى أنه تعثر في إيجاد الرد المناسب لبرهة من الزمن قبل أن يرد: جل مافي الأمر أني شخصي دقيق جداً ، أهتم بعلمي كثيراً وأسعى دائماً للتميز.

تفحص دكتور أليكسندر المعروف بفراسته وجه أدلار أثناء رده الدبلوماسي الذي لم يقنعه نهائياً فبات متأكداً أن هناك أمر آخر هو المحرك الرئيسي لأدلار في ذلك الاتجاه.

حسناً أدلار أتمنى لك التوفيق في الجزء المتبقي لك من الرسالة ،

وقبل أن يصفح أدلار سأله: أخبرني، هل الدكتور إيلينا متعاونة معك على النحو المطلوب؟

مجرد ذكر اسم إيلينا دفع في قلب أدلار نبضات متتالية من الاشتياق ليرد بعفوية:

- إنها رائعة، فشعر بالحرَج من رده وكأن قلبه مَنْ نطق بدلاً عنه ليستكمل في هدوءٍ مُصطنع:  
- أقصد جداً، متعاونة جداً دكتور أليكسندر.

ابتسم أليكسندر وهو يصفح أدلار بينما خرج الأخير من الباب ومازال عقل أليكسندر مُصرّاً أن وراء أدلار أمرٌ آخر غير الرسالة العلمية، أمرٌ يبدو أنه يمثل نقطة فارقة في حياته.

دلف أدلار إلى منزله بينما كان يرن هاتفه المنزلي ليلقي ما في يده ويرد سريعاً؛ فجاءه صوت إيلينا على الجانب الآخر:

- حبيبي.. اشتقت إليك كثيراً واستطردت ببراءتها المعتادة:  
هيا يجب أن تستكمل رسالتك دون تأخير أيها الباحث.

- اعذريني يا حبيبتي أني لم استطع القدوم إلى الدار اليوم، فقد استغرق اجتماعي مع دكتور أليكسندر الكثير من الوقت وهناك بعض التعديلات التي يجب أن أقوم بها وسوف...

قاطعته إيلينا في تأثر: هل هذا يعني أني لن أراك اليوم حبيبي؟  
- آسف حبيبتي ولكني بالفعل مشغول كثيراً وسأتي باكراً إلى الدار.

ردت إيلينا بخيبة أمل:

- حسناً حبيبي.. أراك غداً، أحبك.. مع السلامة.

شعر أدلار بأنه ربما يكون أحزنها ، فهو نفسه لم يعد باستطاعته أن يمرّ يوم دون رؤيتها فانتزع سماعة الهاتف والتي لم يرفع يده عنها بعد ليطلب رقم هاتف مكتب إيلينا سريعاً ليأتيه صوتها وبه بحّة حزن ليفاجأها بقوله:

— سأقابلك الليلة عند الممشى المائي في تمام التاسعة ، اتفقنا؟  
لترد عليه حبيبته دون تردد وقد تبدّل حالها مائة وثمانون درجة من الحزن للسعادة الغامرة:

— اتفقنا.

«اشتقت لك كثيراً»

قالتها إيلينا وهي تغمرُّ أدلار بشوقها عند الممشى المائي.

كنت أعتقد أنني أقوى من ذلك إيلينا ، فلم يعد بإمكانني أن يمر يوم في حياتي دون أن أراك ، اعترف بضعفي أمام حبك يا أميرتي والعجيب في الأمر أنني لا أخجل من ذلك؛ فحبك تملكني من قمة رأسي حتى أخمص قدمي.

تخضبت وجنتاها من الخجل أمام كلماته الرقيقة فلم يكن منها سوى أن ألقت برأسها داخل صدره وهي تردد:

— أحبك أدلار.. أحبك.

اجتاحت السكينة كيان أدلار لمجرد قربها من قلبه ليحتضن رأسها معتمراً إياها بشوق ، بينما سقطت تلك الصورة القديمة التي لا تفارق أدلار أبداً ، لينتبه الأخير أن إيلينا قد دعستها بدون قصد الأمر الذي جعل أدلار يدفع حبيبته بقوة أمتها فوقمت تنظر إليه واضحةً يدها فوق موضع الألم وقد اختلطت في داخلها المشاعر ما بين العتب والدهشة وما بين الفضول ولكنها ظلت ساكنة كتمثال صُقل من

الشمع واكتفت بالنظر إلى أدلار الذي انتبه بدوره إلى ردة فعلته التي خلت من الذوق فقام بعد أن نفض الغبار عن الصورة محاولاً أن يمسك كتفي إيلينا معتذراً.

— عن ماذا تعتذر أدلار؟ أعلى دفعك لي بهذه القوة وبتلك العدائيتة؟ أم تعتذر عن كونك غير صريح معي كما كنت معك وقد أخبرتك بكل تفاصيل حياتي من قبل أن أعرفك؟ لماذا تحتفظ لنفسك بجانبٍ مظلم لا تواجه لي فيه؟

عجز أدلار عن الرد على تساؤلاتها؛ فالتزم الصمت تماماً مما زاد الأمر تعقيداً لتتوقف إيلينا لحظات قليلة تنتقل فيهن عيونها بين عيون أدلار في محاولة منها لمحاولة فك شفرة السر الذي يخفيه عنها ولكن أدلار ظل ثابتاً حتى أطرق برأسه لترفع إيلينا أحد حاجبيها دليلاً على عدم تصديق ما يحدث أمامها فحدثت نفسها:

— هل هذا أدلار الذي أحبه وأصبحت أمامه كتاباً مفتوحاً متحكماً هو في صفحاته؟

ثم اقتربت من وجه أدلار قائلة:

— تباً لك يا أدلار!

وأدبرت مسرعة تاركة إياه وحيداً بينما أنهمر المطر بشدة لكن العاشق لم يكن عابئاً بغير عشيقته التي تركته لأمر عز عليه التحدث عنه.

عاد أدلار إلى بيته وأخرج الصورة التي لا تفارقه ليطيل النظر بها حتى غلبه النوم، فلم يوقظه سوى شعاع الشمس المتسرب من النافذة، كانت ملابسه لازالت مبتلة والإرهاق نال منه مناله ولكن حتماً عليه الذهاب إلى دار العجزة لاستكمال بحثه، وداخل هذا

الضجيج القابع في رأسه تذكر إيلينا فشعر بأن قبضة الحزن تعتصر قلبه بشدة ، أصبح أدلار في حيرة من أمره ولكنه قرر الذهاب وليدع الأمور تسير في مسارها الذي رسمه لها القدر.

وفي داخل دار العجزة كانت إيلينا قد ذهبت للعمل مبكراً فهي لم تذق طعم النوم طوال الليلة الماضية. تجمّدت في مكانها فور رؤية أدلار، كانت كمثل بركان مدفون في أحضان جبلٍ من الجليد ، كان سلامها أبرد من الطقس في الخارج، تحدّثت في لهجة رسمية جداً وأخبرت أدلار أن السيد فلاديمير ديمتري وافق على إجراء الحوار معه والتحدّث بصفته أحد الناجين وشاهداً آخر على أحداث معتقل أوشفيتز. كانت قسوتها طعنة قوية لقلب أدلار ولكنه جاء في مهمةٍ حتمًا عليه إنجازها.

وأمام حجرة السيد فلاديمير وبينما كانت إيلينا تهم بالدخول، استوقفها أدلار قائلاً:

– لا أتحمل قسوتك هذه إيلينا.

نظرت إليه إيلينا في تعجب قائلة:

– ومن ذا الذي اختار القسوة بديلاً عن الحب يا أدلار؟ أنت من تحمل صورة امرأة في جيبك وقد لاحظت اهتمامك الزائد بتلك الصورة ولم تفصح يوماً عن هويتها رغم إلحاحي في السؤال عنها ، فلم تكن عابئاً بما يجول في صدري والشك المحمل بعلامات استفهام غُرزت في قلبي، لم تكثرث لغيرتي والتي هي منبع حُبِّي، رغم أنني احترمت مشاعرك عندما كان الموقف معكوساً ، أتذكر؟

هزّ أدلار رأسه في صمت وقد حاول فتح فمه لينطق ولكن كان هناك ثمة ما يمنعه.

لتتلق إيلينا في انفعال: مرة أخرى لا استقبل منك جواباً سوى الصمت.. والصمت فقط، إذن لا تطالني بأكثر من معاملتك كمجرد باحث يحتاج إلى المساعدة لاستكمال رسالته، وواجبي نحو وطني يحتم عليّ مساعدتك حتى يعرف العالم مدى القسوة والظلم الذي عاناه هؤلاء المساكين داخل معتقلاتكم النازية، تلك الأسرار التي لم ولن تروى سوى على السنة هؤلاء.

وهذه المرة لم تنتظر منه رداً وأسرعت بالطرق على الباب والدخول فوراً إلى حجرة السيد فلاديمير وسط عجز تام عن التبرير من جهة أدلار.



## الهروب الكبير

وفي داخل الحجرة عرف أدلار نفسه إلى السيد فلاديمير ووضع أدواته وأوراقه على منضدة مجاورة لسرير الأخير وقبل أن يستهل حديثه باغتته إيلينا بتوجيه حديثها للسيد فلاديمير وهي ترمق أدلار بلحاظ عينها:

\_ على فكرة الدكتور أدلار يمكنه التحدث بالروسية بطلاقة.

نظر إليها أدلار وقد فهم مقصدها، فهي لم تعد تريد التواجد معه في نفس المكان.

ثم استطردت: سأظل متواجدة في الجوار في حال احتجت أي شيء سيد فلاديمير ولكن عذراً فعندي الكثير من العمل اليوم، وخرجت متحاشية النظر إلى أدلار كُلياً.

ورغم معاناة أدلار جراء الحيرة بين حبيته وبين السر القابع في حنايا قلبه إلا أنه بدأ حديثه مع السيد فلاديمير في محاولة منه لفصل حياته الشخصية عن العمل.

- «سيد فيلاديمير هل يمكنك تعريف نفسك قبل أن تستهل سردك لوقائع معركة الهروب الكبير من معتقل أوشفيتز؟» قالها أدلار

- قبل أن أعرف نفسي هل تقابلنا من قبل؟

فأجابه أدلار:

- «لم أتشرف بمعرفتك من قبل سيد فلاديمير وتلك هي المرة الأولى التي أزور فيها روسيا».

- إذن لا عليك دكتور أدلار يبدو أن الشيخوخة نالت مني منالها  
عمومًا أنا فلاديمير ديمتري أحد الضباط في الجيش السوفييتي  
سابقًا ، أبلغ من العمر خمسة وسبعون عامًا .

- «الآن سيد فلاديمير بإمكانك سرد ما تريده دون قيد أو شرط ،  
فقط الحقيقة كاملة باعتبارك شاهد على الأحداث» .

- جميلة هي الحرية التي لطالما افتقدناها لفترة طويلة ، ثم أخذ  
نفسًا عميقًا ومد يده المرتعشة بفعل الشيخوخة ليأخذ رشفة من  
الكوب الذي إلى جواره مستكملًا حديثه : ولكن اسمح لي بسؤال  
دكتور أدلار كيف اتقنت اللغة الروسية بهذه الطلاقة ؟

تتحنح أدلار واعتدل في جلسته فقد كان هذا آخر سؤال يود  
أن يطرحه عليه أحد بالذات في تلك الفترة ولكن رده الدبلوماسي  
بأن لديه شغف لتعلم اللغات لم يكن مقنعًا أبدًا لضابطٍ محنكٍ مثل  
فلاديمير . واستهل الأخير حديثه قائلًا :

- تم أسري أنا ومجموعة من ضباط الجيش السوفييتي وقتها ليم  
إيداعنا داخل معسكر أوشفيتز مع عدد كبير من اليهود بما فيهم  
زعيم اليهود نفسه ، كان المعسكر يعجُّ بالأسرى ما بين الأوروبيون  
والسوفييت حتى أن الألمان اليهود أو المعادين للعنصرية أو مختلطي  
الدماء بين البيض والسود ألمانيّ الجنسية لم يسلموا من ذلك .

هاينريش هيملر كان من أقوى رجال أدولف هيتلر وأكثرهم  
شراسة ، قاد فرقة القوات الخاصة الألمانية والبوليس السري  
المعروف بالجستابو وأشرف على عمليات إبادة المدنيين في  
معسكرات الموت الألمانية حيث عمل كرئيس للوحدة الوقائية  
في الجيش النازي ، كما يعتبر هيملر أبًا للهولوكوست ، حيث بدأ  
عام ١٩٣٣ بإنشاء المعتقلات وملاحقة اليهود والفجر والشيوخيين

والمثليين حتى المعاقين وأي عرق غير العرق الآري.

كان أدلار مصغياً لحديث السيد فلاديمير بشكلٍ كامل،  
واستطرد الأخير صاحب الملامح الروسية القوية والتي لم تؤثر عليها  
التجاعيد حديثه بثبات وقوة رجل عسكري:

— يعتبر معسكر أوشفيتز من أكبر معسكرات الاعتقال النازية  
والذي تحول من معسكر وحيد يضم اثنان وعشرون مبنى إلى ثلاث  
معسكرات رئيسية و٤٥ معسكر فرعي.

ثم صمت السيد فلاديمير وأغمض عينيه وهو يسترجع تلك  
الذكريات القاسية التي عاناها داخل معسكر أوشفيتز:

— «تحركوا جميعاً إلى الداخل هيا.. هيا».

قالها أحد الضباط النازيين فور وصولنا إلى المعسكر مع دفعنا  
بظهر أسلحتهم في إهانة متعمدة وبالطبع كضباط من الجيش  
الأحمر كان لنا معاملة مختلفة، خاصة أننا أعداؤهم حتى النخاع.

جلسنا جميعاً في تلك الغرفة المظلمة وكلُّ منا يعلم جيداً أنّ موته  
صار أمراً حتمياً فقط هي مسألة وقت، وفي أحد الأيام قدم إليّ أحد  
المعتقلين معرفاً نفسه:

— حاييم إيزاك زعيم اليهود في المعتقل.

— وأنا فلاديمير ديمتري أحد الضباط السوفيتّ وهذا زميلي «مارك

يوري».

استوقف أدلار السيد فلاديمير بغفوية مردداً: مارك..يوري.

قضب فلاديمير حاجبيه بينما كان يحاول أن يدرك لماذا استوقفه  
أدلار بهذه الطريقة؟

وقد لاحظ أدلار ذلك ليتدارك الأمر معتذراً عن المقاطعة:

\_ تفضل سيد فلاديمير.

استمر السيد فلاديمير في سرد حقائق متطابقة كلياً مع شهادة السيدة صوفياً من حيث الانتهاكات الإنسانية والقتل الممنهج عن طريق الأعمال الشاقة والتعذيب والتجويع أو إطلاق النار عليهم فرادى، أو من خلال إطلاق النار عليهم بشكل جماعي، مثلاً في وادي «بابين جار» بالقرب من العاصمة الأوكرانية كييف أو في غابة بونار قرب فيلنيوس، على سبيل المثال لا الحصر. إلا أن أوشفيتز يشكل رمزاً لجميع هذه المعسكرات، فالنازيون مارسوا فيه القتل بأقصى حد، ولا يوجد معسكر إبادة نازي آخر غيره قتل فيه مثل هذا العدد الكبير من الأشخاص بمثل هذه الصورة الوحشية وفي مثل هذا الوقت القصير. اكتفى أدلار بهذا القدر من الحديث مع السيد فلاديمير، وشكره على سعة صدره ثم توجه أدلار بعدها إلى بيته لتفريغ محتويات التسجيل كالعادة ولكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً، فظل يعيد سماع الجزئية الخاصة باسم (مارك يوري) مراراً وتكراراً ثم أخرج الصورة القديمة من جيبه واستزاد في التمعن بها طويلاً ثم أخذ نفساً عميقاً وأطلق زفرة حارة قائلاً: لقد اقتربنا.. كثيراً. ثم وضع الصورة في جيبه وبات يربّت عليها برفق.

كان حينه لإيلينا غالباً على أي شعور آخر وبدون تفكير وجد نفسه يطلب هاتفها المنزلي ليأتيه صوتها غارقاً في محيطٍ من الحزن:

\_ ألو... ألو

صمت أدلار قليلاً قبل أن ينطق في تردد: إيلينا..

انتحبت الفتاة قليلاً قبل أن تتطرق:

\_ ماذا تريد مني يا أدلار؟

فأجابها: أريدك أنتِ إيلينا.. لم أعد أستطع العيش بدون أنفاسك، بل وبّت أتعجب كيف كنت أعيش سنواتي الماضية بدونك؟ كيف لي أن أحيأ بدون روحي وقلبي اللذان لم يعودا ملكاً لي بعد؟ ردت إيلينا وقد دخلت في هيستريا من البكاء: أصبحت أنت نقطة ضعفي الوحيدة في الحياة يا أدلار، فبحق قلبي الذي سلبتني إياه وأصبحت دقاته تتطق باسمك من هي صاحبة الصورة يا أدلار؟ من صاحبة الصورة؟

— حسناً إيلينا سأخبرك، أقسم لك أنني سأخبرك وخاصة وإنني.. وإنني.. ثم صمت أدلار مرة أخرى

— وإنك ماذا يا أدلار، هناك سر كبير تخفيه عني.

— نعم إيلينا هناك ثمة ما أخفيه عنك ولكني كنت عازم على إخبارك به في الوقت المناسب.

— متى يا أدلار؟ ألهذه الدرجة لا تثق بي؟

— لا إيلينا ليس الأمر كما تعتقدين، وجُلّ ما أطلبه منك أن تمهليني بعض الوقت وأعدك بعدها أنني سأخبرك بالحقيقة الكاملة، فهل تثقين أنتِ بي؟

صمتت إيلينا لبرهة من الزمن وقد توقفت عن البكاء قبل أن تتطق:

— بلى..، وأخذت نفساً عميقاً: أثق بك يا أدلار.

— إذن ستحضرين معي التسجيلات القادمة مع السيد فلاديمير؟

— بالتأكيد حبيبي.

— أحبك إيلينا، أراك غداً.. تصبحين على خير.

— أعشقتك أدلار.. أحلام سعيدة وواقع أجمل..

أغلق كل منهما الهاتف وهو ينتظر الصباح بفارغ الصبر ربّما لأن أيام الفراق طالت وربما لأن الحقيقة أوشكت على كشف نقابها. وفي الصباح التقى الحبيبان عند بوابة الدار ليدخلا معاً كل منهما متعلّقاً بالآخر، متشابكي الأيدي وقد تعاهدت عيونهما على البقاء سوياً لأخر العمر وحذف كلمة فراق من قاموس حبّهما إلى الأبد.

استقبلهما السيد فلاديمير بكل بائسامة ودودة مستكماً حديثه عن معتقل الموت وكيف اتفق جميع السجناء على خطة الهروب والتي كانت أشبه بعملية انتحارية منها كمحاولة للحصول على الحرية، خاصة وأن جميع المحاولات السابقة باءت بالفشل بل لم يتوقف الأمر عند ذلك؛ فقد زهقت الكثير من الأرواح إزاء تلك المحاولات، حتى يكون الباحثون عن الحرية من الأسرى في المعتقلات النازية عبرة لمن لا يعتبر.

وقال فلاديمير مستطرداً: لقد اعتبرنا أنفسنا في مركب واحدة، فإما الحرية أو ألا يكون للحياة أيّة قيمة بعد ذلك، كنا أنا ومارك يوري المسؤولان عن التخطيط للعملية والتي أطلقنا عليها عملية الهروب الكبير وكان حاييم زعيم اليهود عليه اختيار كل شخص بعناية في مكانه الصحيح من المخطط وكانت الاجتماعات تُعقد في سرية تامّة وفي منأى عن أعين النازيين.

ولكن كان هناك نقطة خلاف بيني وبين مارك يوري؛ بسبب أمر لم أتقبله في البداية، وهي قصة الحب الذي نشأت بينه وبين فتاة ألمانية تدعى كاثرين كانت تعمل في التمريض ضمن الطاقم الطبي للمعسكر، ففي أحد الأيام أصيب مارك بارتفاع شديد في درجة الحرارة وهذا الأمر بالنسبة للنازيين لا يعني سوى شيئاً واحداً ألا وهو الإعدام الفوري خشية أن يكون المريض مصاباً بأحد تلك

الأوبئة التي انتشرت خلال تلك الفترة فساعدته الفتاة كثيراً في الإبقاء على حياته ، فكان مجرد مساعدتها له وحمايته من الموت في تلك الحالة تضحية كبيرة جداً يمكن أن تعرضها لعقوبة الإعدام ومن هنا نشأت قصة حب بينها وبين مارك وتعاهدا على أن يعيشا معاً أو يموتا معاً.

لمح السيد فلاديمير لمعة في عيون أدلار لم يستطع تحديد سببها هل كان متأثراً لهذه الدرجة بالقصة أم أن هناك سبباً آخر.

كثير من التسؤلات أراد أدلار الحصول على إجابة عليها ، كان التردد محركاً أساسياً لعقله وبينما كان خاطره يعج بالأفكار استفاض السيد فلاديمير في شرح خطة الهروب الكبير: تعاهد جميع الأسرى وقتها أن يظلوا على قلب رجل واحد ، وكانت الخطة هي تصفية جميع ضباط المعسكر في سرية تامة وفي نفس التوقيت وبهدوء وحذر شديدين ، فكان أول القائمين على العملية هو الحائك حيثُ بعث لأحد الجينرالات وهو رئيسهم بأن معطفه قد أصبح جاهزاً ولكن ينقصه فقط أن يأتيه الجينرال في ورشته كي يقوم الحائك باللمسات الأخيرة وقد كان ، حضر الجينرال النازي وأثناء قيامه بقياس المعطف وإذ به يجد نفسه مقيداً به وحينها باغته أحد المساعدين للحائك بضربة على رأسه بينما انتزع الحائك سلاح الجينرال ووضع وسادة قديمة على رأسه وأطلق عليه النار ، وجاءت البشري بنجاح أول خطوة في الهروب وتوالت الخطوات الناجحة ما بين تصفيتهم بالرصاص وبين نحر رقابهم ، كانت العملية شديدة الدقة حيث أن أصغر خطأ قد يؤدي بحياة الأسرى جميعاً ، والتأخير قد يمهل الجينرالات وقتاً كافياً لاستدعاء قوات الدعم ويشاء القدر أن يأتي ميلر في زيارة إلى المعسكر في ذلك الوقت ، وقد شاهد دماء

لا زالت ساخنة تنساب في سلاسة ومنبعها كان غرفة الإسكافي،  
انفعل ميلر عندما فتح الباب ليجد جثة مساعد رئيس المعسكر  
منحور الرقبة، أطلقت صفارات الإنذار والتي لازال صداها يتردد بين  
جنبات عقلي حتى الآن.

صمت السيد فيلاديمير ليلتقط أنفاسه اللاهثة وكأنه لازال داخل  
المعركة الآن وليس ما يقرب الخمسون عاماً قد مضت على الأمر.  
حتى أن إيلينا استدعت الطاقم الطبي لكي يفحصوا ضغط دمه  
ومستوى السكر أيضاً.

بينما كان صوت قوي بداخل أدلار يصرخ: أرجوك.. أرجوك  
أكمل فلاديمير أكله.

نظر الطبيب المختص إلى إيلينا وأخبرها أن كل شيء على ما  
يرام، فقط لا تدعوه يتعرض لانفعال شديد.

«كيف وإذا كان حال فلاديمير هكذا لمجرد استرجاعه  
لتلك الذكري، فما بال حال من في المعسكر وقتها؟» هكذا كان  
أدلار يحدث نفسه

انتظمت أنفاس السيد فيلاديمير وبات مستعداً لاستكمال حديثه  
وكانه لم يفقد عزمته العسكرية وروحه المثابرة بعد كل تلك  
الفترة.

إذن سيد فلاديمير هل يمكنك التحدث الآن؟ قالها أدلار

نعم دكتور أدلار ومعذرةً على المقاطعة يبدو أن صحتي لم تعد  
تتحمل هذا القدر من الانفعال ولكن لا عليك منها.

قالها فلاديمير مبتسماً وكأنه يعاند الزمن متحدياً شيخوخته  
مستكماً بثباتٍ بذل فيه مجهود لإظهاره:

— أين توقفتنا؟

بادره أدلار بسرعة كمن كان في انتظار الإنقاذ من الغرق:

— عند انطلاق صافرات الإنذار فور اكتشافهم عمليات الاغتيال.

أشار السيد فلاديمير بيده تأكيداً على كلام أدلار مستطرداً:  
نعم.. كان علينا اتخاذ الخطوة الأكبر والأكثر شجاعة على الإطلاق  
وهي ثورة جماعية مهما كلفنا الأمر ومهما كان عدد الضحايا، فقد  
كان البعض منا يحمل أسلحة الضباط الذين تم اغتيالهم، كانت لا  
تتماشى أبداً مع عدد القوات التي تواجهنا ولكنها كانت كافية  
لتأمين البعض أثناء كسرهم السياج الحديدي بعد أن فصلنا التيار  
الكهربائي عن المعسكر، كان السياج عنيداً صلداً تماماً كما  
النازيون ولكن الضغط الجماعي كان كافياً لانهيائه تحت الأجساد  
التي ارتمت فوقه حتى تحطم، ولكل معركة خسائر؛ فكانت  
خسائر الأرواح فادحة حتى أن من تمكن من الهروب حوالي مائتي  
شخص من أصل آلاف من البشر نجا منهم فقط خمسون شخصاً،  
استطاعوا الهرب إلى المزارع و البلاد المجاورة وقد ساعدهم بعض  
الفلاحين في التخفي والفرار بعد ذلك إلى عدة دول أخرى. وهكذا  
كانت نهاية قصة معركة الهروب الكبير.

صمت السيد فلاديمير لحظات بدت كأنها حداداً على أرواح  
الأبرياء، أو ربما أبت روحه العسكرية والتي لم تفارقه أن تسمح لتلك  
الدموع بالانسياب ففضل الصمت ريثما تتقهقر تلك القطرات لتعود  
أدراجها ويبدو أنه كان محنك في ذلك، ليعود مستطرداً لكلامه  
بنفس الثبات والقوة:

— نجا عدد قليل فقط من التعذيب داخل معتقل «أوشفيتز» النازي،  
وقُتل عشرات الآلاف في معسكرات الموت بعد أن قامت وحدات

النخبة النازفة (إس.إس) بففرفغ المعقل على عجل والفرار غرباً مع قوافل أسرى الحرب والسفناء. وفف عام ١٩٤٥ وصل سفنود الففش الأحمر السوففففف إلى سفاف الأسلاك الشائفة فف معسكر الإبادة، وفف الموقع عشروا على ما ففرب من ٧ آلاف سفة مففسفة، وأخرى فحولت إلى هفكل عظمف لمعقلف وأسرى المعسكرات، وقد تم تفففير معظم الفكنات ورفر الفاف والمفارق فبابة عن الفناة. وقد مفف وحدات النخبة النازفة آثار آلات القتل الخاصة بهم، مثل الملفات، بطاقات الففزفن، شهادات الوفاة، وتم الفلصف ورفق كل شفة له صلة بهم على عجل.



## فيلهم غوستلوف

«سيد فلاديمير هل لي أن أطرح عليك بعض الأسئلة؟» قالها أدلار متساءلاً.

– نعم بالتأكيد دكتور أدلار تفضل

أين ذهب مارك يوري؟ وما مصير الممرضة التي ساعدته؟  
صمت فلاديمير قليلاً قبل أن يرد في تأثر شديد بدا واضحاً على ملامحه لأول مرة:

– لقد كان زميلي وصديقي المقرب مارك يوري أحد ضحايا معركة الهروب الكبير.

صمت السيد فلاديمير مرة أخرى، ولكن تلك المرة صارَعَتْه دموعه وانتصرت عليه لِنَفْرَ هاربة من مقلتيه رُغْمًا عنه، ويمسحها بيده المرتعشة بفعل السن.

سألته إيلينا بعد أن انتابها القلق بشأن حالته الصحية:

– هل تحتاج للراحة سيد فلاديمير؟

– لا يا ابنتي، أنا بخير.

واستطرد فلاديمير في سرده رُغْم تأثره الشديد:

– عند السياج كنت أنا وزملائي نقوم بتأمين الأسرى أثناء محاولة الهروب، وقتها أصيب مارك يوري بعيارٍ ناري في صدره، ليسقط على الفور بين ذراعيّ في مشهد قاسٍ على نفسي وقد تناثرت دماؤه الحارة على وجهي وملابسي، فحملته وركضتُ سريعاً نحو برميل قديم لنحتمي به ثم وضعته على الأرض ووجهه في مقابلي، وكانت

كلماته الأخيرة التي نطقها بصعوبة:

– ما ينمو في أحشاء كاثرين هو ابني أو ابنتي يا فلاديمير، أرجوك ابحث عنها ولا تتركها حتى تتأكد أنها ومن تحمله بأمان، هذه وصيتي أرجوك لا تتهاون في الأمر ابحث عن كاثرين، وظل مارك يردد اسمها حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

فبادره أدلار بالسؤال: وما كان مصير كاثرين؟

أجابه فلاديمير:

– بحثت عنها وقتها ولكن كانت المعركة حامية الوطيس وكان النازيون في أوج غضبهم فلم أملك الوقت الكافي للرجوع إلى مباني معسكر أوشفيتز والتفتيش عنها، ولكني لم أنس وصية صديقي أبداً ما حييت.

- «إذن هل تقصد أنك لم تقابلها بعد ذلك» قالها أدلار

- «للأسف دكتور أدلار فقد بحثت عنها خاصة بعد..

ثم صمت فلاديمير لحظات ربما شعر فيها بالحرج.

باغته أدلار بالإجابة بطريقة هجومية:

لا تخجل سيد فلاديمير أكمل حديثك، خاصة بعد أن هاجم الجيش الأحمر السوفييتي المواطنين العزل، دعني أنا أكمل لك الحكاية.

تعجبت إيلينا من هجوم أدلار على السيد فلاديمير بتلك الطريقة، ولكن المفاجأة ألجمت فمها، فلم يكن منها سوى أن حاولت أن تهدأ من انفعاله خشية أن يقع مكروه للسيد فلاديمير فحالته الصحية لا تسمح بذلك.

- «أدلار أرجوك لا داعي للانفعال».

- اتركه دكتور إيلينا.. لا بأس، أكمل حديثك دكتور أدلار

تفضل يا ولدي أنا أسمعك جيداً.

واستطرد أدلار حديثه متخلياً عن مهنيته المعهودة لأول مرة:

- أعداد هائلة من المواطنين العزل تشردوا بسبب الهجوم الشرس لقوات الجيش السوفييتي، أُغتصبت النساء بوحشية ثم تمّ قتلهن؛ حتى أنهن لجأن لمادة السيانيد السامة حتى يتخلصن من حياتهن؛ لتصبح تلك المادة السامة أغلى من الذهب، لم يرحموا أحد من الفتيات الأطفال حتى العجائز، مسافات طويلة قضوها في السير نحو الموانئ للهروب عن طريق السفن التي ستقلهم إلى بر النجاة. أصيب الرجال بالجنون فمن كان يعترض كان مصيره القتل أمام أفراد عائلته، تجمّد الأطفال من برودة الطقس والذي تجاوز ١٨ تحت الصفر، هل تتخيل سيد فلاديمير أن الغارات الروسية لم تُبق على طريق يمر منه المهاجرون وإلا وضربته محدثة فجوة في الجليد لكي تبتلع هؤلاء المساكين دفعةً واحدة، وهناك من جمدوا من برودة الطقس وقلة الغذاء، حتى أن ضروع السيدات أصبحت مثل أغصان الأشجار الميتة ليموت بعدها الرضع كثمار جفت جزوعها.

كان فلاديمير وإيلينا صامتتين تماماً، شعرت الأخيرة أنها تود أن تنتفض من مكانها لتحضن أدلار لتزيح عنه ذلك الحمل الثقيل ولكن أدلار لم يتوقف واستطرد كجبل ظل حاملاً هموم الدنيا وانهار فجأة:

\_ ولم يتوقفوا عند هذا الحد فعندما وصل الذين استطاعوا البقاء بعد كل تلك الظروف القاسية إلى ميناء «غيدينيا» انتظرهم الموت هناك.

سفينة «فيلهم غوستلوف» تلك التي تحولت من سفينة لعلية القوم إلى طوق النجاة من جحيم السوفييت.

صمت أدلار قليلاً ليلتقط أنفاسه وقد تدارك أن انفعاله ليس في

موضعه؛ فالرجل الذي أمامه طاعن في السن والأخرى هي حبيبته، أطلق زفرة حارة بينما أعطته إيلينا كوباً من الماء وربّتت على كتفه في حنان أشبه بحنان الأم منه للحبيبة.

بينما تتحنح السيد فلاديمير قبل أن يتحدّث في حكمة:

- لا ألومك أبداً يا ولدي على انفعالك بل كليّ آذان صاغية فقد شعرت من الوهلة الأولى أن هناك سرّاً ما تحمله في قلبك، جاث على أنفاسك طوال سنوات حياتك ولا أعلم صدقاً لماذا شعرت أنني أعرفك منذ أن رأيتك لأول مرة؛ فهون عليك لأنني أعلم أن ما اقترفناه أيضاً لم يكن جُرمًا يفتقر، أكمل يا ولدي فأنا أسمعك.

شعر أدلار ببعض السكينة جرّاء حديث السيد فلاديمير ولمسات إيلينا الحنونة له شجعتة على استكمال حديثه:

- كانت سفينة «فيلهلم غوستلوف» معدة لحمل ألف ومئتان راكباً ولكن تمّ تحميل أكثر من عشرة آلاف وخمسمائة راكب معظمهم من الأطفال والنساء.

كانت الأولوية لمن يحمل طفلاً لذلك كان البعض من الأقارب يأخذ الطفل ليتّم السماح له بالصعود ثمّ يقذفه إلى باقي العائلة لكي يُسمح لهم بالصعود بدورهم على متن السفينة، لكم أن تتخيلوا أن هناك أطفال لم يحسنوا التقاطهم وكانت النتيجة السقوط في الماء أو أن يسقط الطفل كبالون محمل بالدماء منفجراً على رصيف الميناء.

أغمضت إيلينا عيونها محاولة إبعاد تلك الصورة البشعة عن مخيلتها صارخة:

— يا إلهي! كم كان هذا قاسياً على ذويهم!

بينما كان السيد فلاديمير منصتاً رغم علمه بكل تلك الأحداث.

وتابع أدلار مستطرداً:

– لم يقف الأمر عند هذا الحد فبعد أربعون دقيقة من إبحار السفينة تمّ ضربها بثلاث طوربيدات بحرية سوفيتية؛ لتصيب الهدف بنجاح ساحق و تغرق السفينة في قاع البلطيق في دقائق كانت هي الأبعث على الإطلاق، لم ينجُ من عدد الركاب المهول هذا سوى ألف ومئتان راكب فتصبح سفينة «فيلهم غوستلوف» هي أسوأ كارثة بحرية على الإطلاق وليست «تيتانك» كما يعتقد العالم كله، وذلك فقط لأننا ألمان الجنسية تمّ التعميم الكامل على الأمر ليفرق تماماً في غياهب الزمن كما السفينة المنكوبة وغيرها من الأسرار التي ستظل حية في قلبي وقلب كل من فقد أحبته جراء الحرب.

ثمّ أخرج أدلار الصورة القديمة التي لا تفارقه وسط ترقب من إيلينا يقابله سكون من السيد فلاديمير ليضعها أمام أعين الأخير (هل تعرف صاحبة تلك الصورة؟) اقترب فلاديمير من الصورة ببطء وهو يضع نظارة القراءة خاصته ليمسك بالصورة بحذر بينما كانت إيلينا تنتقل بعيونها بين الصورة وبين السيد فلاديمير قبل أن ينطق الأخير وهو ينظر إلى وجه أدلار:

”كما توقعت بالضبط؛ فمنذ أن وقعت عيني على وجهك وقد شعرت أنني أعرفك جيداً، أنت هوياء ولدي، تشبهه في كل شيء، نبرة صوتك وملامحك حتى انفعالك ولكي أؤكد لنفسني أنني على حق فقد تعاملت معك كما كنت أتعامل معه عندما يصل لأوج غضبه، كنت أتركه يلقي بحمم انفعاله حتى يهدأ فلا أقاطعه ولا أجادله أنت من صُلب صديق عمري ثم صمت لحظات تترقق فيهن الدمع في مقلتي فلاديمير ليفجر قبلة لم تكن لتتوقعها إيلينا أبداً (أنت الإبن الوحيد لمارك يوري) اتسعت حدقتا إيلينا من هول المفاجأة قائلة: (إذن تلك صورة والدتك.. كاثرين يا إلهي!)

هز أدلار رأسه ببطء وهو يبتسم ابتسامة حزينة تحمل الكثير من الانكسار لتتهض بعدها إيلينا مسرعة نحو أدلار محتضنة رأسه داخل صدرها في حنان ليزداد نحيب أدلار مع دقائق قلبها وقد تساقطت بدورها دموعها الحارة مرددة:

(جئت لتبحث عن والدك يا حبيبي، لقد ظلمتك وقسوت عليك كثيراً.. سامحني أرجوك سامحني)  
حتى أن السيد فلاديمير لم يستطع أن يمسك دموعه لينادي على أدلار:

(اقرب يا ولدي.. اقرب فقد أشتقت إلى رائحة أبوك)

رفع أدلار رأسه عن صدر إيلينا ثم هم بالنهوض بروية نحو سرير السيد فلاديمير ليقف أجزاء من الثانية قبل أن يرتمي في أحضانه ليلتقمه السيد فلاديمير بين ذراعيه مربباً على ظهره بحنان أب ثم أبعده عنه قليلاً ليمسك بوجهه بين كفيه:

- (تشبه والدك لأقصى درجة يا ولدي).

ثم احتضنه مرة أخرى بشدة لتخرجهما إيلينا من لحظة الشجن تلك قائلة وهي تمسح دموعها:

«لم يعد هناك داع للحزن أنت هنا في بلدك يا أدلار وسنبعث عن عائلة والدك وستكون جميع الأمور على ما يرام، يكفيك ما واجهته كل تلك السنين الماضية)

(صحيح يا ولدي أخبرني ما الذي حدث مع والدتك؟».

قالها السيد فلاديمير وهو يكفكف دموعه بالمنديل الذي ناولته إياه إيلينا.

ابتسم أدلار ابتسامة باهتة:

- لقد غادرت أمي معسكر أوشفيتز مع باقي الفريق قبل هجوم

الجيش الأحمر ولم يكن هناك أحد يعلم بحملها سوى صديقتها  
مادلين ومرّت شهور الحمل ثم وضعتني في وقت كان معظم الألمان  
غير عابئين بأي شيء سوى الخوف من هزيمة هتلر ومن سوء حظها  
أنها كانت ضمن ركاب سفينة..

صمت أدلار قليلاً وكان الأمر ثقيلاً على قلبه أن يذكره قبل أن  
يكمل:

(سفينة «فيللم جوستلوف»، لتلقى مصرعها غرقاً داخل مياه  
البلطيق المتجمدة)

(وكيف نجوت أنت يا أدلار؟) قالتها إيلينا.

حسب رواية مادلين والتي بالمناسبة لم أعرف لي أمّاً غيرها قد  
أعطتها أمي إياي أثناء غرق السفينة فلم تكن أمي قد عرفت هل  
مات أبي أم هرب ووصلتها أن تبحث عن أبي أو عائلته في حال إذا  
انتهت الحرب في يوم من الأيام وتسلمني لهم، ولكن مادلين لم تنفذ  
وصية صديقتها فبعد نجاتنا من الغرق في ذورق صغير مررنا بفترة  
عدم استقرار طويلة ثم عدنا بعدها إلى ألمانيا وكنت وقتها في  
سن المدرسة واستخرجت لي شهادة ميلاد باسمها ولم تخبر أحداً  
أنني لست ولدها واعتقدت أن السر غرق في غياهب البحر كما  
غرقت كاثرين ولكن القدر شاء أن يكشف ذلك السر قبل وفاتها  
بفترة قصيرة عندما أصيبت بورم خبيث في الرحم وكان حتماً على  
الأطباء استئصاله وابلغوني وقتها أنها تحتاج إلى نقل دم وكنت أنا  
أول من أراد بالتضحية بحياته لأجلها معتقداً أنها أمي حتى كشفت  
التحليلات الطبية استحالة أن أكون ابنها علاوة على أنها لم تتجب  
من قبل لأنها عاقر، وهنا بكيت تحت أقدامها لكي تخبرني من  
أنا وبصوت واهن أخبرتني بالحقيقة الكاملة وأعطتني صورة أمي  
الحقيقية كاثرين وعرفتني اسم والدي وطلبت مني أن أسامحها فقد

خشيت أن تفقدني طول حياتها لذلك جرعتني الكره للسوفييت، حتى تبعد عن تفكيري فكرة البحث يوماً ما عن والدي في حال عرفت الحقيقة خشية أن أتركها، حتى لفظت أنفاسها الأخيرة وهي تردد:

- (سامحني يا ولدي).

وبالمناسبة هي من ذكرت لي اسمك سيد فلاديمير في حال أردت معرفة الحقيقة ولم أستطع الوصول إلى والدي، كما أخبرتها أمي الحقيقية .

تتهدت إيلينا بحرارة:

- «كم كانت قاسية السيدة مادلين كقسوة الحرب في باطنها الرحمة وفي ظاهرها العذاب»

ليجيبها السيد فلاديمير:

- (نعم صدقتي يا ابنتي، والآن أدلار عليك الذهاب إلى عائلة والدك حتى تتعرف عليهم)

\_ نعم سيد فلاديمير هذا ما قد عذمت عليه ومن ثم سأقوم بإجراء التحاليل اللازمة لإثبات نسبي لعائلة (يوري) ولكن قبل كل ذلك أريد زيارة قبر والدي.

«نعم يا ولدي وأنا أيضاً أحتاج لزيارته وأعلم جيداً أنه سيفرح بوجودنا معاً لذلك دكتورة إيلينا أطلب تصريحاً للخروج».

- «بكل سرور سيد فلاديمير» ثم ابتسمت «فأنا أيضاً أودّ زيارته».

نقل السيد فلاديمير بصره بين أدلار وإيلينا بينما كانا يتبادلان نظرات الحب؛ فhez رأسه مبتسماً متمنياً لهما حياة مديدة معاً تحمل كل السعادة التي حُرّم منها مارك وكاثرين.

وبعد عدة أشهر...

«نعم أوافق» هكذا كان رد إيلينا عند سؤالها هل توافقين على

---

الزواج من السيد أدلار مارك يوري. إذن أعلنكما زوجًا وزوجة،  
يمكنك تقبيل عروسك.

الحرب في موسكو، والدموع تنهمر من عيون السيد فلاديمير  
وكانت إلى جواره على الكرسي المدولب السيدة صوفيا.

وقد حضر مراسم الزفاف الدكتور أليكسندر، وودع العروسان  
الجميع معلنان بدأ حياة جديدة، لتتظر إيلينا إلى وجه أدلار متسائلة:  
«هل ستكمل رسالتك عن تلك الحرب الدامية؟»

«لا عزيزتي، بل سيكون نصفها عن الحق والنصف الآخر عن  
السلام».



